الفصل الثالث

(مدح خير الأنبياء)

١) المقطع الأول: مطلع القصيدة.

٢) المقطع الثاني: شرح أبيات المنازلة.

٣) المقطع الثالث: جملة من صفاته ﷺ.

٤) المقطع الرابع: محمد ﷺ باني الحضارة الإسلامية.

٥) المقطع الخامس: معجزاته وبشائر مولده ﷺ.

٦) المقطع السادس: أمجاد إسلامية.

٧) المقطع السابع: فضائل ومحامد.

٨) المقطع الأخير:

مطلع القصيدة

١- أَنْصِتْ لِمِيْمِيَّةٍ مِن أَمَمٍ[١]

مِدَادُهَا مِن مَعَانِي نُونْ وَالْقَلَمِ

لقد بدأ الناظم ميميته بتوجيه أمر إلى القارئ، مستخدماً في الصياغة الأسلوب الإنشائي، وهذا الأمر الغرض منه الحث على الانتباه والتفكر والتدبر فيما سيرويه.

وكلمة (أنصت) توحي للوهلة الأولى بأن الناظم قد قرر الاقتباس من القرآن الكريم مع سبق الإصرار والترصد، مؤكداً ذلك بقوله (مدادها من معاني نون والقلم).

والمتأمل لقول الناظم (أنصت) يجدها مقتبسة من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٢]. فقد أضاف ربُّ العزة الإنصات إلى الاستماع، أي يجب أن يكون هذا الاستماع بإنصات، أي بتعقل وتدبر فيما نسمع، ولذا فقد طلب الناظم من القارئ وتمشياً مع الاقتباس القرآني أن يعقل ويتدبر ويتأمل فيما سيقوله له. ثم أطلق عليها اسم ميمية في

(١) أمم: الأمم القرب . يقال أخذت ذلك من أمم: أي من قرب .

(٢) سورة الأعراف آية (٢٠٤) .

قوله: (أنصت لميمية)؛ لكون حرف الروي الذي اختاره لها هو حرف الميم، والروي: الحرف الذي تُبنى عليه القصيدة، ويلزم في كل بيت منها[١]. وربما آثر ناظمنا حرف الميم على غيره من الحروف كروي ليعارض بها ميمية البوصيري (البردة) والتي يقول فيها:

أمن تذكر جيران بذي سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم[٢]

أو ميمية أمير الشعراء أحمد شوقي التي يقول فيها:

ريم على القاع بين البان والعلم

أحل سفك دمي في الأشهر الحرم[٣]

أو ميمية محمد توفيق زارع، التي أطلق عليها نهج البردة التي يقول فيها:

بحار علم من الميمية انفجرت

وعبقرية آداب من الديم[٤]

أو ميمية ناصر الزهراني التي يقول فيها أيضاً:

أبدعت ميمية بالحب شاهدة

أشدو بها من جوار البيت والحرم[٥]

---

(١) لسان العرب مادة (ر. و. ي) ج ٥ ص ٣٨٢.

(٢) المعارضات في الشعر العربي للدكتور محمد بن سعد بن حسين ص ١٨٦.

(٣) الشوقيات ج: ص١٩٠.

(٤) المعارضات في الشعر العربي ص ٢١٠.

(٥) السراج المنير/ قصيدة في مدح الرسول ﷺ لناصر الزهراني ص ١٠٩.

أو ليعارض غيرهم من أصحاب الميميات، والذين مدحوا رسول الله ﷺ مقتدين في ذلك بقصيدة البردة للبوصيري. ولا سيما أن الكثير من الشعراء عارضها، فأراد ناظمنا أن يكون له في ذلك سهم ونصيب.

وأما قوله: (من أمم) أي من قريب لك، وليس غريباً عنك، فهو أخ لك مسلم يجتمع معك في الأخوة في الله وفي محبة رسول الله ﷺ، هذا إذا أراد الناظم أن يكون هكذا المعنى، ولا سيما أن هناك قرينة تدل على هذا المعنى وهي بداية الاستهلال في قوله: (أنصت) فلا يمكن أن يوجه إنسان لإنسان أمراً إلا إذا كانت تربطه بهذا الإنسان علاقة ما لكي يستجيب لهذا الأمر، وقد فضّل ناظمنا أن تكون هذه العلاقة علاقة المحبة والأخوة في الله، كونها أعلى درجات الروابط الإنسانية والتي تربط المسلمين ببعضهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، وقد أخذ ناظمنا هذه الرابطة من القرآن وأكد عليها؛ ليمارس من خلالها ضغطاً نفسياً على القارئ لكي يجعله ينصت إلى ما يقوله. وكلمة (من أمم) تذكرنا بقول شوقي في ميميته في مدح الرسول ﷺ، حيث يقول:

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا
همس التسابيح والقرآن من أمم

فقد استخدم ناظمنا (من أمم) بالمعنى نفسه الذي استخدمه شوقي، وهذا يسمى تأثراً أو اقتباساً أو سلخاً، والدافع إلى ذلك تأثر المحبين لرسول الله ﷺ، بعضهم ببعض.

---

(١) سورة الحجرات آية (١٠).

وبجانب هذا السلخ، يستمر الاقتباس من القرآن الكريم، ليمثل نوعاً آخر من الضغط النفسي على القارئ فيقول: (مدادها من معاني نون والقلم)، فكلمة (مدادها) مقتبسة من قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[١] وأيضاً قوله: (نون والقلم). مقتبسة من قوله تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[٢]. وقوله: (ن والْقَلَمِ) يذكرنا أيضاً بقول شيخنا ناصر الزهراني في ميميته حيث يقول:

يكفيك عن كل مدح مدح خالقه

واقرأ بربك مبدا سورة القلم[٣]

مع الوضع في الاعتبار أن الاقتباس القرآني لأي شاعر فيه شاهد قوي على إقناع القارئ أن ما سيقوله الناظم إنما يستوحي ألفاظه ومعانيه وعباراته من القرآن الكريم، أي أن ما سيحدث القارئ عنه هو حديث مقتبس من حديث رب العزة في القرآن، وبالتالي يستوجب أهمية معينة في ضرورة الإنصات له والاستماع إليه والتدبر والتفكر في ما يرمي إليه[٤].

---

(١) سورة الكهف آية (١٠٩).

(٢) سورة القلم آية (١).

(٣) السراج المنير ص ٩٦.

(٤) يبدو أن هذه عادة الناظم في نظم قصائده الغر العظام . حيث يجتذب القارئ من خلال مدح قصائده وبأنها دائماً نتيجة فتح من الله من به عليه، ودائماً ما يبدأ بالفخر بنفسه وبعمله (القصيدة) ومن ذلك قوله في نونيته حين مدحها: (شرح نونية الشيخ عائض لكاملة الكواري) ص٨

نونية القرني أشرق نورها عينان فيها للهدى نونان

نسجت بعون الله من برد الهدى قد جاء هذا الفيض من حسان

شرفت عن الإطراء صدق قولها وحديثها قبس من القرآن

فهو كما يؤكد على أن الميمية مدادها من نون والقلم، يؤكد أيضاً على أن النونية حديثها قبس من القرآن . وفي هذا تكرار لنفسه وللفكرة، واستهلاله لمعنى قديم ذكره قبل ذلك، بالإضافة إلى كونه استهلالاً للقصائد يجعل القارئ ينظر إليه نظرة المقلد المحاكي المكرر الذي لا يملك بدايات جديدة يبدأ بها قصائده.

ثم ينتقل الناظم بعد إقراره بعقد العزم على الاقتباس والتأثر بالقرآن الكريم كونه أحب الكلام إلى الله عز وجل إلى نعت ميميته، وأن هذه الميمية جاءت نتيجة محبة خالصة لرسول الله ﷺ، وأن نتيجة هذه المحبة كان تأثر قريحته التي أبدعت هذه الميمية، والتي جاءت كلماتها وألفاظها وصورها متدفقة موحية ومعبرة عن هذه العاطفة؛ ولذا فقد بدأ الميمية مخالفاً لغيره ممن بدؤوا ميميتهم بالغزل، والهوى، وشكوى فراق الأحبة، وإنما بدأها بالاعتراف بمحبة رسول الله ﷺ، والتي كان لها أكبر الأثر على أن تظهر هذه الميمية إلى الوجود وأن يتحدى بها كل من سبقوه في محبتهم لرسول الله ﷺ وحولوا هذه المحبة إلى صياغة قصائد جميلة بديعة في شأن هذه المحبة، فيقول:

٢ ـ سَالَتْ[١] قَرِيحةُ[٢] صَبٍ[٣] في مَحَبَّتِكُمْ

فَيْضاً[٤] تَدفَق[٥] مِثل الهَاطِلِ[٦] العَمِمِ[٧]

وقوله: (سالت قريحة صب) تشبيه استعاري يشبه فيه الناظم قريحته بشيء يسيل متدفقاً متتابعاً متلاحقاً متسارعاً من شدة حبه للرسول ﷺ، وفي تشبيهه لقريحته بالسيل اقتباس من قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[٨]. حيث اتفق مع القرآن الكريم في المعنى النافع للسيل والذي

(١) سالت: جرت وتدفقت في قوة وتتابع .

(٢) قريحة: القريحة: هي ملكة يستطيع بها الإنسان ابتداع الكلام وإبداء الرأي، واستنباط الشيء من غير سماع، والاجتباء والاختيار والتحكم وارتجال الكلام .

(٣) صب: أي عاشق مشتاق . الصبابة: الشوق، وقال ابن الأعرابي: صب الرجل إذا عشق يصب صبابة .

(٤) فيضاً: كثيراً مندفعاً متتابعاً . لسان العرب مادة (ف.ي.ض) ج١٠ ص ٣٦٧، ٣٦٨.

(٥) تدفق: تصبب، ويقال: دفق الماء والدمع يدفق تدفق، أي تصبب .

(٦) الهاطل: الكثير الدائم المتتابع، ويقال: هطل المطر فهو هاطل: أي تتابع في ديمومة .

(٧) العمم: الذي أعم كل شيء.

(٨) سورة الرعد آية (١٧).

ينفع الناس، فكذا قريحته عندما تسيل، فإنها من فرط المحبة من هذا الصب لمحبوبه ﷺ تراها تسيل كالفيض الذي يتدفق مثل المطر الذي يهطل أو كالسحاب الماطر الذي يتساقط متتابعاً وبكثرة لكي يعم كل شيء. واستخدام الناظم للألفاظ يؤكد هذه الفكرة، فقوله: (سالت ـ فيضاً ـ تدفق ـ هاطل) توحي باندفاع الأفكار على قريحته وتتابعها.

وقوله: (صب) تدل دلالة قاطعة لا تحتمل أي شك في صدق المحبة التي وصلت أعلى درجاتها وذروتها وهي درجة الصبابة، وإن هذه الصبابة هي التي تجعل قريحته تسيل فيضاً.

وقوله: (فيضاً) فيها اقتباس من معنى الإفاضة في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾[1]. وقوله تعالى أيضاً: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾[2]. وقوله عز وجل ـ أيضاً: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾[3]، فالملاحظ أن الاستخدام القرآني لمادة (ف. ي. ض) في الآيات السابقة كان بمعنى الاندفاع وبكثرة، وهذا المعنى هو الذي اقتبسه ناظمنا واستخدمه، للدلالة كما ذكرنا سابقاً على صدق عاطفة الصبابة والمحبة لخير خلق الله محمد بن عبد الله رضي الله عنه.

وقوله: (مثل الهاطل العمم) تشبيه مركب، أو كما يطلق عليه أرباب البلاغة تشبيه صورة بصورة، حيث شبه صورة قريحته وهي تسيل كالفيض المتدفق بصورة السحاب المحمل بالمطر الذي يهطل فيعم كل شيء. والصورة المركبة

---

(١) سورة المائدة آية (٨٣).

(٢) سورة البقرة آية (١٩٨).

(٣) سورة البقرة آية (١٩٩).

تدل على براعة ناظمنا في الصياغة وحسن تصويره وتعبيره، ولا سيما أن التشبيه المركب جاء دالاً وبصدق في ألفاظه على صدق عاطفته، وإن كان قوله: (مثل الهاطل العمم) فيه تخميس، أي خلط خُمس بيت شاعر آخر ببيته الشعري، ومثل هذا الخلط أو الأخذ أو السرقة أو السلخ... يسميه الشعراء والنقاد تشطير أو تثليث أو تربيع أو تخميس أو تسديس أو تسبيع[١] بمقدار ما أخذ الشاعر وخلط، فإن أخذ نصف بيت لشاعر وخلطه بنصف بيت شعر له سمي هذا تشطيراً، فإن أخذ ثلثه سمي تثليثاً... ومثل هذا نلمحه كثيراً عند ناظمنا وعند غيره من الشعراء، والتخميس عند شاعرنا مأخوذ من قول شيخنا ناصر الزهراني في ميميته في مدح الرسول ﷺ.

أزيز صـــدرك في جـــوف الظلام ســـرى

ودمع عـــينك (مـــثل الهـــاطـل العـــمم)[٢]

والبعض يرى أن فيها تربيعاً وليس تخميساً؛ لأن شيخنا خلط ربع بيت الناظم ناصر الزهراني بثلاثة أرباع من بيته. وللدلالة على أن ما وقع فيه ناظمنا وقع فيه غيره نورد مثالاً لمثل هذا النوع من الاقتباس أو السرقة أو التأثر، من ذلك مثلاً التشطير عند أحمد بن شرقاوي الخلفي، ومطلع تشطيره:

(أمن تذكـــر جـــيـــران بـذي سلـــم

أصـــبـــحت ذا خلد بالوجـــد مـــصطلـم

(١) المعارضات في الشعر العربي ص ١٩١.

(٢) السراج المنير ص ١٠٢.

أمن تفـــتت قلب في الحـــشـــا شـــغـــفـــاً

(مـــزجت دمـــعـــاً جـــرى من مـــقلة بـدم)

فنجد أن الشاعر أخذ قول البوصيري في نهج البردة:

أمـن تـذكـــر جـــيـــــــران بـذي سلـــم

مـــزجـت دمـــعـــاً جـــرى من مـــقلة بـدم

حيث أخذ شطر كل بيت وخلطه بشطر بيت له من صياغته، وهذا هو التشطير.

ثم ينطلق الناظم بعد ذلك إلى مجموعة من التشبيهات الموحية والمعبرة عن تلك العاطفة الصادقة المتدفقة فيقول:

٣ ـ كَالْسَيْلِ(١) كَاللَّيْلِ(٢) كَالْفَجْرِ(٣) اللَّحُوحِ(٤) غَدَا،(٥)

يَطْوِي(٦) الرَّوَابي(٧) وَلا يَلْوِي(٨) عَلَى الأَكَمِ(٩)

---

(١) كالسيل: الماء الكثير السائل، وماء المطر إذا جرى مسرعاً فوق سطح الأرض.

(٢) كالليل: الوقت من مغرب الشمس إلى طلوعها . وفي الشرع: من مغربها إلى طلوع الفجر، ومفرده ليلة، والليل اسم لكل ليلة، والليل ضد النهار.

(٣) كالفجر: الفجر: ضوء الصباح، وهو حمرة الشمس في سواد الليل . وهما فجران: أحدهما المستطيل وهو الكاذب، ويسمى ذنب السرحان، والآخر المستطير وهو الصادق المنتشر في الأفق الذي يحرم الأكل والشرب على الصائم، ولا يكون الصبح إلا الصادق . والفجر في آخر الليل كالشفق في أوله .

(٤) اللحوح: ألح في الشيء: أي أكثر سؤاله إياه، ورجل ملحاح: مديم الطلب، وألح على الشيء: أقبل عليه لا يفتر عنه أبداً وهو الإلحاح .

(٥) غداً: غدا يغدو أي ذهب وانطلق .

(٦) يطوي: طوى يطوي أي يقطع ويجاوز، وفي الحديث الشريف: الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار، أي تقطع مسافتها. ويقال: مر بنا فطوانا: أي جازنا .

(٧) الروابي: واحدتها رابية، والرباة كل ما ارتفع عن الأرض وربا ـ أي زاد .

(٨) يلوي: يذهب ويعطف عليه، ولوى عليه إذا عطف وعرج، وفي الحديث الشريف: فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد، أي لا يلتفت ولا يعطف عليه.

(٩) الأكم: أشراف في الأرض كالروابي، وهي دون الجبل، أو هي الموضع يكون أشد ارتفاعاً مما حوله، وهو غليظ لا يبلغ أن يكون حجراً. وواحدته أكمة .

ويقول الناظم: إن هذا الفيض من المحبة والذي تدفق مثل الهاطل العمم قد سال وتدفق أيضاً كالسيل الذي يهطل ويجري ويندفع بقوة، وكالليل الممتد، وكالفجر الذي لاح ضوؤه وسنا برقه فأشرق منطلقاً ينشر ضوءه ولمعانه ونوره على الروابي الجميلة الحسنة، ولا يعرج ولا يعطف على الأكم أو ما دون الجبال من صخور مرتفعة.

وقوله: (كالسيل ـ كالليل ـ كالفجر) تشبيهات حذف منها وجه الشبه، واكتفى فيها الناظم بذكر المشبه والمشبه به وأداة التشبيه، وهذا النوع من التشبيهات الدارجة يعد من التشبيهات الشائعة الاستخدام التي لا ترقى في قوتها وجمالها وسحر تأثيرها إلى قوة وجمال وسحر وبهاء التشبيه البليغ، وهو: التشبيه الذي تحذف فيه أداة التشبيه ووجه الشبه ويكتفي بالمشبه والمشبه به. مثل قولك: محمد أسد، فهذا تشبيه بليغ حيث شبهت محمداً بالأسد وحذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، وهذا يعد أفضل من قولك محمد كالأسد في القوة والشجاعة.

أما بالنسبة لقوله: (كالفجر اللحوح) فإننا لم نعثر فيما تحت أيدينا من مراجع ما يؤكد الفكرة التي يرمي إليها الناظم من استخدامه كلمة (لحوح) مع الفجر كصفة يصفه بها؛ وبالتالي فالمعنى من وراء التشبيه يكاد يكون غامضاً، اللهم إلا إذا كان يقصد (كالفجر المليح)[١] أي الفجر الذي لاح ضوءه ولمع وبرق وانتشر، أو ربما قصد (الفجر اللحوح)[٢] أي الفجر العطشان إلى الانطلاق في الروابي وقطع المسافات... وفي هذه الحالة سيكون (كالفجر الملواح) بمعنى العطشان من قوله: لاح يلوح لوحاً: أي عطش، والملواح: أي العطشان.

(١) لسان العرب مادة (ل. و. ح) ج١٢ص٣٥٤،٣٥٥ .

(٢) لسان العرب مادة (ل. ح. ح) ج١٢ ص ٢٤٥، ٢٤٦ .

ومن ثم سواء كان الفجر (مليحاً) أو (ملواحاً) فإن (لحوحاً) لا تجوز مع أي معنى منهما، بالرغم من أن كلا المعنيين من خلف تشبيههما يؤديان صورة رائعة للفجر، ولكن كلمة (لحوح) لم نعثر لها على أثر في المراجع، فهي كلمة شاذة غريبة على اللغة العربية، وليست بغريبة على اللهجات، وإن قصد (اللحوح) بمعنى الإلحاح أي من كثر اللح وطلب السؤال فإنها ستكون غريبة أيضاً (فاللحوح) أي كثير الديمومة في طلب الشيء يسمى (ملحاحاً) وليس (لحوحاً)، زد على ذلك أن الفجر في وصفه بكثرة اللح سيكون تشبيهاً غريباً شاذاً لا يفيد معنىً جديداً، ولا يوضح معنىً قديماً، ولا يؤكد فكرة سابقة، ولا يمهد لفكرة لاحقة، ولا يزيل غموض لبس، بل لقد أوقع القارئ في لبس وحيرة، بالإضافة إلى ما سبق فإن تكرار الناظم للتشبيهات مع تنوعها واختلافها نجد أنها تؤكد وتلح إلحاحاً على فكرة معينة، وهي أن قريحته تندفع بقوة، فهي انسيابية، انسيالية، متدفقة، تغمر الدنيا بأسرها كونها تعبر عن صب مُتيم بحب رسول الله، والبيت في مجمله يمتاز بحسن التقسيم والذي يضفي عليه موسيقى داخلية رائعة، بالإضافة إلى الجناس الناقص في قوله (يطوي - يلوي)، والذي يعطي نوعاً خاصاً أيضاً من الموسيقى الداخلية، فإذا أضفنا إلى كل ذلك أن (يطوي - يلوي) مضارعين يفيد كل منهما الاستمرار، وجاء كل فعل منهما على هذه الصيغة المضارعة لكي يناسب قريحة الناظم، والتي تسيل فيضاً وتهطل عمماً، وجدنا صدقاً في العاطفة، وبيتاً فيه روعة في التقسيم وموسيقاه الداخلية تذكرنا ببيت المتنبي:

الخـــيل والليل والبـــيـــداء تعـــرفنـــي

والســـــيف والرمح والقـــــرطاس والقلم

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف وتشبيه يضع القارئ في حيرة حيث يقول بعد وصف الفجر بأنه لحوح وأنه ينطلق لكي يطوي الروابي ولا يعرج على الأكم:

٤- أَجَشُّ[١] كَالْرَّعْدِ[٢] فِي لَيْلِ السُّعُودِ[٣] وَلَا

يُشَابِهُ الرَّعْدَ فِي بَطْشٍ[٤] وَفِي غَشَمِ[٥]

وقوله: (أجش كالرعد) تشبيه لشيء ما بأنه أجش كالرعد، ولكننا لا ندري ماذا يقصد بهذا التشبيه؟ ومن الذي يعنيه بتشبيهه هذا؟ فهل يقصد مثلاً تشبيه قريحته بأنها (أجش كالرعد) فهذا شيء لا يجوز، إذن هل يقصد تشبيه الفجر بأنه (أجش كالرعد)، فإن هذا لا يجوز أيضاً ولا يحتمل ولا يعقل؛ لأن الرعد له صوت وليس له ضوء، والفجر له ضوء وليس له صوت، وبالتالي لا

(١) أجش: الجشش والجشة: صوت غليظ فيه بحة، والأجش: الغلظ الصوت . وفي الحديث أنه سمع تكبيرة رجل أجش الصوت، أي في صوته جشة، وهي شدة وغلطة . ومنه حديث قس: أشدق أجش الصوت . وقيل: فرس أجش: وهو الغليظ الصهيل، وهو ما يحمد في الخيل .

(٢) الرعد: الصوت الذي يسمع من السحاب، وأرعد القوم وأبرقوا: إذا أصابهم رعد وبرق، وأرعدت السماء: صوتت للإمطار . وقال الزجاج: جاء في التفسير أنه ملك يزجر السحاب، قال: وجائز أن يكون صوت الرعد تسبيحه؛ لأن صوت الرعد من عظيم الأشياء . وقال ابن عباس: الرعد ملك يسوق السحاب كما يسوق الحادي الإبل بحدائه . قالوا: وذكر الملائكة بعد الرعد في قوله تعالى: ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** ﴾ يدل على أن الرعد ليس بملك . وسئل علي رضي الله عنه عن الرعد فقال: ملك، وعن البرق فقال: مخاريق بأيدي الملائكة من حديد . وقال الليث: الرعد ملك اسمه الرعد، يسوق السحاب بالتسبيح، قال: ومن صوته اشتق فعل رعد يرعد، وقال الأخفش: أهل البادية يزعمون أن الرعد هو صوت السحاب، والفقهاء يزعمون أنه ملك.

(٣) السعود: النجوم . وهي عشرة: سعد بلع، وسعد الأخبية، وسعد الذابح، وسعد السعود. وهذه الأربعة من منازل القمر، وسعد ناشرة، وسعد الملك، وسعد البهام، وسعد الهمام، وسعد البارع، وسعد مطر، وهذه الستة ليست من المنازل . كل منها كوكبان بينها في المنظر نحو ذراع.

(٤) بطش: الأخذ القوي الشديد، بطش به: أخذه بالعنف .

(٥) غشم: ظلم وغصب، والغشم: الظلم والغصب . والحرب غشوم: لأنها تنال غير الجاني .

يمكن أن نجد بينها مسافة يمكن أن يلتقيا فيها في التشبيه، وتمثل بالنسبة لهما وجه الشبه، ثم إننا نلمح عدم وجود رابط يربط بين هذا التشبيه وبين ما يعود عليه، ولا نجد قرينة فيه تدل على المقصود من وراء هذا التشبيه، وأيضاً الصفة (أجش) لا بد أن تعود إلى أقرب موصوف، وذكرنا أنه لا يجوز؛ فأقرب موصوف هو الفجر، والفجر لا يمكن أن يكون له صوت فيه شدة وغلظ إلا إذا شبهه بإنسان، وفي هذه الحالة سيكون تشبيهاً استعارياً أي يخرج من مجال التشبيه إلى الاستعارة، وهذا أيضاً لا يجوز؛ لوجود المشبه به وأداة التشبيه، إلا أن يكون تشبيهاً مركباً، أي صور الفجر في صوته بإنسان له صوت أجش، وأنه في صوته الأجش يشبه الرعد في صوته الغليظ القوي الشديد، واستبعد صفة البطش والقسوة والظلم التي يسببها الرعد من صورة هذا الفجر الذي شبهه بإنسان، وأن صوته الأجش ليس فيه ظلم الرعد أو قسوته أو فزعه التي عبر عنها بقوله: (في ظلم وفي غشم).

وقوله: (يشابه) كان الأفضل لو كانت (يشبه) لكي تستقيم موسيقى البيت الداخلية والخارجية؛ لأن (يشابه) بها ساكن زائد أضر بموسيقى البيت. وكل من (يشابه) و (يشبه) سيؤدي المعنى نفسه الذي يوضح فكرة التشبيه دون أي خلل.

أما قوله: (كالرعد في ليل السعود) فيقصد بها ذلك الرعد الذي يصاحب الليل الذي تظهر فيه نجوم السعود (ذكرناها في الهامش)، وربما أوحى (ليل السعود) بأن الرعد في هذه الليالي يكون مدمراً لأنه يصحبه مطرٌ هالكٌ مهلكٌ؛ نستدل على ذلك من خلال قوله: (أجش كالرعد) فكلما ازداد صوت الرعد غلظة وشدة دل ذلك على ازدياد شدة المطر، وفي نهاية الأمر يبدو أن

الشاعر اقتبس البيت بمعناه ووضعه في غير موضعه، ويدلل على ذلك استمراره في الاسترسال في التشبيهات والوصف الذي لا ندري من يقصد به حيث يقول:

٥- كَدَمْعِ عَيْنِي إِذَا مَا عِشْتُ أَذْكُرُكُمْ

أَوْ خَفْقِ[١] قَلْبٍ بِنَارِ الشَّوْقِ[٢] مُضْطَرِمِ[٣]

ومن خلال هذه التشبيهات نلمح انفراجاً بسيطاً في صوره المقصوة بكل هذه التشبيهات البلاغية، ولا سيما إذا لاحظنا أنها متممة لسابقتها من تشبيهات في تأدية المعنى، فإذا ما تذكرنا هذه التشبيهات مجتمعة وجدناها كالآتي: (مثل: الهاطل العمم، كالسيل، كالليل، كالفجر، أجش كالرعد، كدمع عيني، خفق قلب).

وبعد ذلك أدركنا أنه لا توجد قرينة تدل على الشبه اللهم إلا الفيض في قوله في وصفه للقريحة حين سالت بأنها فيضاً تدفق: (سالت قريحة صب في محبتكم فيضاً تدفق) ثم أخذ يصف هذا الفيض المتدفق ويشبهه بالهاطل العمم، وبأنه كالسيل - كالليل - كالفجر، ثم نصطدم بعد ذلك بقوله: (أجش كالرعد) فلا يمكن أن يكون الفيض أجش كالرعد، ثم يعود إلى تشبيهات تتمم التشبيهات السابقة حيث يشبه الفيض بدمع العين أو خفقان القلب.

---

(١) خفق: اضطراب الشيء، وخفق الفؤاد: اضطرب . والخفقة: ما يصيب القلب فيخفق له . والخفقان: اضطراب القلب.

(٢) الشوق: الشوق والاشتياق: نزاع النفس إلى الشيء، والجمع أشواق . والشوق حركة الهوى.

(٣) مضطرم: مشتعل . ضرمت النار: اشتعلت والتهبت .

واستخدام الشاعر لأداة العطف أو في قوله: (أو خفق قلب) أضعف المعنى قليلاً، ولا سيما أن الناظم منذ بداية وصفه للقريحة يسترسل في التشبيهات و (أو) لا تناسب هذا الاسترسال؛ لأنها تفيد معنى التخيير لغة بين شيئين، أي أن الموصوف أو المشبه كدمع عينه أو خفق قلبه، والأفضل لو استخدم أداة عطف تجمع بين التشبيهين، بحيث يكون المشبه الذي لا ندري ما هو كدمع عينه وكخفق قلبه، وهذا سيكون أفضل والله أعلم.

وأما قوله: (خفق قلب) بالتنكير، نجده لم يضف شيئاً جديداً؛ فالتنوين في (قلب) سينتهي بساكن، وكذلك لو أضاف ياء المتكلم إلى (قلب) مثلما أضافها إلى عين، فلو قال الناظم: (أو خفق قلبي) فإنها ستكون مناسبة مثل قلب في الوزن من جهة ومن جهة أخرى سيكون لها وقع أفضل كونه نسب دمع العين وخفقان القلب إلى نفسه من خلال إضافتها إلى ياء المتكلم.

ونلمح شدة العاطفة، وألم الصبابة، في قوله: (أو خفق قلب بنار الشوق مضطرم)، حيث يجعل القلب يشتعل ويلتهب ويضطرب من شدة هذه المحبة الخالصة لرسول الله ﷺ.

وشطر هذا البيت يذكرنا بشطر بيت لناصر الزهراني في ميميته أيضاً في مدح الرسول ﷺ (السراج المنير) حيث يقول:

لكن قلبي بنار الشوق مضطرم

أفٍ لقلب جمود غير مضطرم[1]

(١) السراج المنير ص٩٥ .

والبيت عند ناظمنا فيه سلخ وتربيع، حيث أخذ المعنى كاملاً من ناصر الزهراني دون زيادة أو نقصان، ثم أخذ ربع بيت من عنده أيضاً، وخلطه بثلاثة أرباع بيت من عنده، وفي هذا سرقة مزدوجة للفكرة والمعنى واللفظ.

وبالرغم من كل ذلك وبالرغم من عدم وجود رابط قوي أو قرينة تدل على الموصوف أو ترتبط به أو تعود عليه، فإن القارئ ليس بإمكانه إلا التوقف والتأمل أمام هذه الصورة البلاغية البديعة، وهذه الأوصاف الرشيقة التي وصف بها الناظم شيئاً ما، ربما يكون قريحته وربما يكون الفجر اللحوح، وربما يكون الفيض المتدفق... المهم في نهاية الأمر هي مجموعة تشبيهات وأوصاف جيدة، ينتقل منها إلى التحدي بهذه الميمية الرائعة فيقول:

منازلة الشعراء

٦- يَزْرِي[١] بِنابِغَةَ النُّعْمانِي رَوْنَقُهـا[٢]

وَمِنْ زُهَيْرٍ وَمَاذا قَالَ فِي هَرِمِ

أي إن حسن وصفاء وجمال وبهاء هذه الميمية سيزري بنابغة النعمان وكذا زهير وقصائد مدحه التي مدح بها هرم، فميميته هذه ستفوق قصائد مدح النابغة، وكذا قصائد مدح زهير، وهو في تحديه هذا وفخره وافتخاره يعتمد على أن هذه الميمية في مدح رسول الله ﷺ؛ ولذا فلها كل الحق أن تتفوق على مثيلاتها، بل إن النابغة وزهيراً يصبحان والحالة هذه عاجزين أمامها ولا يستطيعانها، فهما لا قبل لهما بها.

وقوله: (بنابغة النعمان) يقصد النابغة الذبياني، وربط بينه وبين النعمان ابن المنذر لكثرة مكوثه عنده ولكثرة مدحه له؛ ولذا ربط ناظمنا بينهما فقال: (نابغة النعمان) ولم يقل نابغة الذبياني، وكثيراً ما ردد ناظمنا المعنى نفسه في تحديه للنابغة حيث ذكر هذا المعنى في نونيته فقال:

وعكاظ لم تسمع بمثل دويها

نسخت قريض النابغة الذبياني[٣]

---

(١) يزري: أزرى بالشيء وزرى به وازدراه أي حقره وعابه.

(٢) رونقها: أي حسنها وصفاؤها.

(٣) شرح النونية ص٨، ص٦٥.

أما النعمان الذي ارتبط اسمه باسم النابغة، فهو النعمان (الثالث) بن المنذر (الرابع) بن امرئ القيس اللخمي أبو قابوس، من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية، كان داهيةً مقداماً، وهو ممدوح النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت، وحاتم الطائي، وهو صاحب إيفاد العرب على كسرى، وباني مدينة (النعمانية) على ضفة دجلة اليمنى، وصاحب يومي البؤس والنعيم، وقاتل عبيد بن الأبرص (الشاعر)، وقاتل عدي بن زيد. وقد ملك الحيرة دارئاً عن أبيه، وكانت تابعة للفرس، فاستمر إلى أن نَقم عليه كسرى وعزله، ونفاه وسجنه إلى أن مات، وقيل ألقاه تحت أرجل الفيلة فوطئته فهلك، وقال الجوهري في الصحاح: إن العرب كانت تسمي ملوك الحيرة - أي كل من ملكها - النعمان لأنه كان آخرهم[1].

وأما قوله: (ومن زهير) فإنما قصد به زهير بن أبي سلمى، حكيم الشعراء في الجاهلية.

وأما قوله: (وماذا قال في هرم) فإنه قصد به هرم بن سنان الذي مدحه زهير كثيراً، وهو: هرم بن سنان بن أبي حارثة المري من مرة بن عوف بن سعد ذبيان، من أجواد العرب في الجاهلية، يضرب به المثل، واشتهر هو وابن عمه الحارث بن عوف بن أبي حارثة بدخولهما في الإصلاح بين عبس وذبيان، وقال الحارث بن عوف في قصة أوردها الأصفهاني: فخرجنا حتى أتينا القوم، فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى، فيؤخذ الفضل ممن هو عليه، فحملنا عنهم الديات، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين، ومات هرم قبل الإسلام في أرض لبني أسد وهو متوجه إلى النعمان، ووفدت

(١) الأعلام، ج٨، ص٤٣.

ابنته على عمر بن الخطاب في خلافته فقال لها: ما الذي أعطى أبوك زهيراً حتى قابله من المديح بما قد سار فيه؟ فقالت: ما أعطى هرم زهيراً قد نسي، فقال لها عمر رضي الله عنه: ولكن ما أعطاكم زهير لا ينسى[١]؟!

وزهير تحداه كثير من الشعراء، منهم بالطبع ناظمنا وكثير غيره، منهم: أحمد شوقي أمير الشعراء على سبيل المثال حيث قال في ميميته في وصف رسول الله ﷺ والتي أطلق عليها نهج البردة:

يزري قريض زهير حين أمدحه

ولا يقاس إلى جودي لدى هرم[٢]

ومعنى بيت شوقي سلخه ناظمنا وأعاد صياغته، أو ربما اتفق الكثير من الشعراء على هذا التحدي الكبير لزهير، والرجل فعلاً من يتأمل قرضه للشعر وقوته وجزالته وطلاوته وحلاوته وعمق صوره البلاغية، وتشبيهاته البيانية، وموسيقاه الشعرية الداخلية والخارجية، أضف إلى كل ذلك حكمه التي صارت مضرب الأمثال لا يملك إلا أن يتحدى هذا الشاعر العبقري بكل ما يحمله المعنى من إيحاءات شعرية، فهو في الشعر يعد من أصحاب المعلقات، وكذا يحسب له أنه من فطاحل الشعراء ومن المقدمين في طبقاتهم.

ويستمر ناظمنا في وصف ميميته ومدحها والتحدي بها فيقول:

---

(١) الأعلام للزركلي ج٨ ص٨٢.

(٢) الشوقيات ج ١ص١٩٥

دَعْ سَيْفَ ذِيْ يَزَنٍ صَفْحَاً[١] وَمَادِحَه

وَتُبَّعَاً وَبَنِي شَدَّادَ فِي إِرَمِ

وقوله: (دع) أسلوب إنشائي في صيغة أمر، الغرض منه النصح والإرشاد، فهو يبدأ بيته بتقديم نصيحة للقارئ، وهي أن يترك مفاخر وأمجاد سيف ذي يزن جانباً، وكذلك كل من تعرض له بالمديح والإطراء.

وسيف بن ذي يزن هو: سيف بن ذي يزن بن ذي إصبع بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو الحميري، من ملوك العرب اليمانيين، ودهاتهم، وقيل: اسمه معد يكرب.

ولد ونشأ بصنعاء، وكان الحبشة قد ملكوا اليمن أوائل القرن السادس، وقتلوا أكثر ملوك حمير، فنهض سيف وذهب إلى أنطاكية، وفيها قيصر ملك الروم فشكا إليه ما أصاب اليمن، فلم يلتفت إليه، فقصد النعمان بن المنذر (عامل كسرى على الحيرة والعراق) فأوصله إلى كسرى أنوشروان (ملك الفرس) فحدثه بأمره فبعث كسرى معه نحو ثماني مئة رجل ممن كانوا في سجونه فسار بهم إلى الأبلة (غرب البصرة) وركبوا البحر، وخجوا بساحل عدن فأقبل عليهم رجال اليمن يناصرونهم، فقتلوا ملك الحبشة ودخلوا صنعاء، وكتبوا إلى كسرى بالفتح، فألحقت اليمن ببلاد الفرس على أن يكون ملكها سيف بن ذي يزن، ومكث في الملك خمساً وعشرين سنة، وتآمر عليه بقايا الأحباش، فقتلوه بصنعاء، وهو آخر من ملك اليمن من قحطان[٢].

---

(١) صفحاً: جانباً.

(٢) الأعلام للزركلي ج٣ص١٤٩.

وسيف بن ذي يزن كان شاعراً مجيداً أيضاً، ينظم الشعر إذا ما عنَّ له خاطر، أو حدث له حادث، فكان يصوغ ذلك شعراً. ومما قاله في قصة انتصاره على ملك الحبشة، واستيلائه على الملك:

يظن الناس الملكيـ ـن أنهما قد التأما
ومن يسمع بلؤمهما فإن الخطب قد فقما
قتلنا القيل مسروقاً ورويننا الكثيب دما
وإن القيل قيل النا س وهرز مقسم قسما
يذوق مشعشعاً حتى يفئ السبي والنعما[1]

وأما قوله: (وتبّعاً وبني شداد في إرم) فإنه يعتبر نصح وإرشاد جديد للقارئ بأن يدع تبعاً وبني شداد... وتبع: هو تبع بن حسان بن ثبان، من ملوك حمير في اليمن، وقيل: اسمه مرثد، وهو تبع الأصغر آخر التبابعة، عقد حلف بين اليمن وربيعة، وسار إلى الشام فلقيه قوم من حمير من بني عمرو بن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ص٧٩.

عامر، فشكوا إليه ما نزل بهم من اليهود في يثرب، وكيف أنهم نقضوا العهد الذي بينهم، فسار إلى يثرب، ونزل في سفح جبل أحد، وبعث إلى اليهود فقتل منهم ثلاث مئة وذللها لهم، وكان مدة ملكه (٧٨ سنة)[١].

هذا إن كان يقصد الناظم تُبَّع بن حسان، فإن قصد تُبَّع الحميري أو ما يسمى حسان بن أسعد، فهو حسان بن أسعد بن أبي كرب الحميري، من أعاظم تبابعة اليمن في الجاهلية، ولعله أكثرهم غارات وأظفرهم كتائب، ويروى أنه سار بجيش عرمرم حتى انتهى إلى سمرقند غازياً، وكلما دخل بلدة اختار من حكمائها وعقلائها عدداً لا يقل عن العشرة، فاصطحبهم معه ثم قصد بلاد الشام، وامتلك دمشق وعاد يريد اليمن فمر بمكة، وكسا الكعبة ويقال: (إنه أول من فعل ذلك) ولما بلغ اليمن قاوم الوثنية، واتخذ مدينتي مأرب وظفار لسكناه، الأولى للشتاء، والثانية للصيف، وجعل في مأرب مكاناً يُنشَّأ فيه أبناء الملوك من حمير يتعلمون فيه كالمدرسة، وثار عليه جماعة من قومه فقتلوه في نهاية حكمه[٢].

وأما قوله: (وبني شداد) فلعله قصد عنترة بن شداد، وهو عنترة بن شداد من شعراء الطبقة والأولى.

وأما قوله: (في إرم) فربما قصد بها المعنى اللغوي، كون الإرم: حجارة تنصب علماً في المفازة، والجمع آرام، وفي الحديث الشريف: «ما يوجد في آرام الجاهلية وخربها فيه الخمس»، وكان من عادة العرب في الجاهلية أنهم

---

(١) الأعلام للزركلي ج٢ص٨٢.

(٢) الأعلام ج٢ص١٧٥. وقد ذكرنا كلاً من تبع بن حسان، وحسان بن أسعد (تبع الحميري) لعدم وجود قرينة في سياق الكلام تدل على أن أحدهما المقصود.

إذا وجدوا شيئاً في طريقهم ولا يمكنهم استصحابه تركوا عليه حجارة يعرفونه بها حتى إذا عادوا أخذوه[١].

والمعنى اللغوي لإرم يتماشى مع قوله: (بني شداد في إرم) وقوي وجهة النظر القائلة: بأن بني شداد المقصود به عنترة. وتكون (إرم) كناية عن الأطلال أو الأماكن الخربة التي يخلفها العرب وراءهم عند رحيلهم، فكأنما يقصد: ودع أيضاً ما قاله عنترة في مدحه للأطلال ووقوفه بها وبكائه عليها.

وإن قصد: (إرم) التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[٢] فمن أضافها جعلها اسم أمتهم أو اسم بلدة، ومن لم يضفها جعل إرم اسم القبيلة، وعاد اسم أبيهم، وقد اختلفوا في موضعها فمنهم من قال هي دمشق، ومنهم من قال: هي الإسكندرية، ومنهم من قال: هي أرض كانت واندثرت، وقال آخرون: هي أرض باليمن بين حضرموت وصنعاء، وهي من بناء شداد بن عاد كما قيل[٣].

والمعنى لا يستقيم إذا كان المقصود (بإرم) البلد أو الشخص، حيث لا توجد علاقة بعاد أو بإرم وبين عنترة بن شداد؛ ولذا فالمعنى اللغوي لقوله: (إرم) أفضل وأوقع، وإن كان استخدام بعض الشعراء كلمة (إرم) يأتي أحياناً بالمعنى القرآني الذي يقصد به مدينة إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، ولكن تكون هناك قرينة في سياق الكلام تدل عليها، من ذلك قول شوقي في ميميته (نهج البردة):

---

(١) لسان العرب مادة (إ. ر. م) ج١ ص ١٢٤.

(٢) سورة الفجر آية (٦-٧).

(٣) معجم البلدان ج١ ص ١٥٤-١٥٧.

لم أغش مـــغناك إلا في غـــصـــون كـــرى

مـــغنـــاك أبعـد للمـــشـــتـــاق من إرم[١]

وجملة النصائح التي عطف الناظم بعضها على بعض ربما تمثل خبرة ذاتية شخصية للناظم أراد أن يوصلها إلى القارئ مستخدماً في ذلك أسلوب النصح والإرشاد، ويستمر الناظم في تقديم النصح والإرشاد للقارئ فيقول:

٨-وَلا تُعَرِّجْ[٢] عَلَى كِـــسْـــرَى[٣] وَدَوْلَتِـــهِ

وَكُلّ أَصْـــيَـــدٍ[٤] أَوْ ذِي هَالَةٍ[٥] وَكَـــمِي[٦]

وقوله: (ولا تعرج) أسلوب إنشائي في صيغة نهي، الغرض منه النصح والإرشاد، والنصيحة هي ألا يقف القارئ عند كسرى ودولته، وما فيها من مباهج ومفاتن وحضارة مزعومة، ولا يغرنه ذلك أو يستهوينه، وكذا يضيف إلى كسرى ودولته كل ملك ظالم أو كل حاكم ملك ملكاً وكان حوله من الحاشية ما يبهر النظر وذلك في قوله: (وكل أصيد) وهي كناية عن كل صاحب منقصة، أو عيب أو مذمة أو متكبر يرفع رأسه كبراً يظن الناس أنه على غير ذلك نتيجة

---

(١) الشوقيات ج١ (نهج البردة) ص١٩٢

(٢) تعرج: يقال: عرج عليه أي عطف عليه، وعرج بالمكان إذا أقام به، والتعريج على الشيء الإقامة عليه، وعرج عليه أي مر به.

(٣) كسرى: اسم ملك الفرس، وهو معرب، وهو بالفارسية خسرو أي واسع الملك، فعربته العرب فقالت: كسرى. والجمع أكاسرة وكساسرة وكسورة على غير قياس.

(٤) أصيد الذي لا يستطيع الالتفات، وقال ابن الأثير: هو الذي في رقبته علة لا يمكنه الالتفاف معها، ودواء الصيد أن يكوى موضع بين عينيه فيذهب الصيد. وقيل: الأصيد هو الذي يرفع رأسه كبراً. ولذا قيل للملك أصيد؛ لأنه لا يلتفت يميناً أو شمالاً.

(٥) ذي هالة: الهالة: دارة القمر. أو أي دائرة من الضوء تحيط بجرم سماوي.

(٦) كمى: الكمى هو الحافظ لسره، والكامي الشهادة: الذي يكتمها، وأكمى: أي ستر منزله عن العيون.

عدم التفكر والتدبر والانبهار بغير الحقيقة الواقعة، حيث يندفعون إلى ما يسحر الألباب ويأخذ العقول باعتبار أن ذلك فيه خير، وأن هذا هو الحسن، كما هي عادات الناس في انبهارها بالملوك والحكام وأرباب الحضارات، والذين ضرب لهم ناظمنا الأمثال مثل كسرى ودولته، أو سيف بن ذي يزن الذي حكم أكثر من خمس وعشرين سنة، أو تُبَّعاً أو غيرهم مما ينبهر الإنسان بذكرهم وذكر حضاراتهم عندما يقرأ سيرتهم.

وقوله: (ولا تعرج على كسرى ودولته)، يذكرنا بقول أحمد شوقي في ميميته حينما نصح القارئ أيضاً بألا تبهره حضارة كسرى باعتبارها كما ذكرنا رمزاً للحضارات المبهرة الضالة المضللة فيقول:

وخل كسرى وإيواناً يدل به

هوى على أثر النيران والأيم

وأما قوله: (أو ذي هالة) ففيها استمرار للنصائح السابقة بألا يخدع بأي صاحب هالة، وهي كناية عن كل صاحب منصب تضاء من حوله الأنوار، ويكون له هالة من الجاه والسلطان والصولجان فتبهرك هذه الهالة فتتوقف عند صاحبها، فتكون بذلك مثل الذين قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم.

ثم يختم الناظم بيته بقوله: (وكمى) مختصراً لكل النصائح السابقة التي قدمها للقارئ مجاناً، (وكمى) أسلوب إنشائي في صيغة أمر، الغرض منه أيضاً النصح والإرشاد، والمقصود احفظ ما قلته لك.

٩- وَٱنْسَخْ[١] مَـدَائِحَ أَرْبَابِ الْمَدِيْحِ كَـمَـا
كَـانَتْ شَـرِيعَـتُـهُ[٢] نَسْـخَـاً لِدِيْنِهِـمِ

١٠- رَصِّـعْ[٣]بِهَـا هَامَـةَ[٤] التَّـارِيْخِ رَائِعَـةً
كَـالْتَّاجِ فِي مَـفْـرِقٍ بِالْـمَـجْـدِ مُـرْتَسِمِ

وقول الناظم: (وانسخ مدائح أرباب المديح) أي أن هذه الميمية ستنسخ وتزيل أي مدح لأي مادح قاله في أي شخص، وهو يقصد بذلك ـ والله أعلم ـ النابغة وقصائد مدحه، وسيف بن ذي يزن وملكه، وزهير وما قاله في هرم من مدح وغيرهم... والذي يدلل على ذلك قوله بعد ذلك: (كما كانت شريعته نسخاً لدينهم) أي سأزيل كل هذا المديح وأغيره كما كانت شريعته (ناسفة ومغيرة ومزيلة لدينهم الذي كانوا يدينون به).

وإن هذه الميمية سيتم ترصيع هامة التاريخ بها، مثلما التاج الذي يوضع على مفرق المجد فيزينه.

وقوله: (رصع بها هامة التاريخ) فيها تشخيص، حيث شبه التاريخ بشخص سيتم ترصيع رأسه بهذه القصيدة، وفيها أيضاً تشبيه للقصيدة بالدرر واللآلئ التي سترصع هامة التاريخ.

---

(١) أنسخ: أغير، والشيء ينسخ الشيء نسخاً أي يزيله ويكون مكانه.

(٢) شريعته: دينه ومذهبه وملته. والشريعة: ما سن الله من الدين وما أمر به.

(٣) رصع: رصع بالشيء: لصق به، وتاج مرصع بالجوهر: أي محلى بالرصائع، ورصع العقد بالجوهر: نظمه فيه وضم بعضه إلى بعض. وفي حديث قدسي: رسيع أيهقان: بمعنى أن هذا المكان قد صار بحسن هذا النبت كالشيء المحسن المزين بالترصيع، والأيهقان: نبت.

(٤) هامة: الهامة: رأس كل شيء من الروحانيين، وقيل: الهامة ما بين حرفي الرأس، وقيل: أعلى الرأس وفيه الناصية، وقيل: هو فوق الرأس بين الجنبين إلى الدائرة.

وأما قوله: (كالتاج) فتشبيه لا لبس فيه، مستخدماً فيه أداة التشبيه (الكاف) لإيضاح المعنى التشبيهي ولربط المشبه به خشية أن تضيع الصورة التشبيهية من ذهن القارئ.

وقوله: (في مفرق بالمجد مرتسم) أي أن هذا التاج سيوضع على مفرق قد اتسم بالمجد، أي اتسم بالخصال الحميدة والمروءة والكرم والشرف[١]، ومعنى البيت يذكرنا ببيت لحافظ إبراهيم (شاعر النيل) يحمل المعنى نفسه حيث يقول حافظ في إحدى قصائده التي مدح بها بلده وقومه ولغته العربية:

أنا تاج العلاء في مفرق الشرق
ودراته فرائط عقدي
أنا إن قدر الإله مماتي
لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي[٢]

ثم ننتقل مع الناظم بعد ذلك إلى فجوة وسقطة ما كان ينبغي لمثله أن يقع فيها حيث يقول بعد الفخر بالميمية وبعد تحديه بها لأرباب المديح، وأنها أصبحت كالدر واللآلئ التي سوف تكون كالتاج الذي سيرصع به هامة التاريخ:

١١- فَالهَجْرُ[٣] وَالْوَصْلُ[٤] وَالْدُّنْيَا وَمَا حَمَلَتْ
وَحُبُّ مَجْنُون لَيْلَى ضُلَّةٌ لِعَمِي

(١) لسان العرب مادة (م. ج. د) ج١٣ص ٢٨.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم قصيدة ـ مصر تتحدث عن نفسها ـ
(٣) الهجر: ضد الوصل. وهجرت الشيء هجراً إذا تركته وأغفلته.
(٤) ضلة: أي ضلالة وهي ضد الهدى والرشاد. والضلال: الباطل والعدول عن الطريق المستقيم عمداً أو سهواً، قليلاً أو كثيراً. والضلة: الحيرة.

فقوله: (فالهجر والوصل) بينهما تضاد يبرز المعنى ويزيده وضوحاً، ولكن استخدام حرف العطف (الفاء) يزيد المسألة تعقيداً وغموضاً، فالفاء تفيد الترتيب مع التعقيب.

أي لو أنك قلت: اشتريت كراسة فقلماً، فقد فهم السامع بما لا يدع مجالاً للشك أن ما اشتريته أولاً كراسة ثم في عقبها مباشرة ودون إبطاء أو تأخير اشتريت قلماً. ولكن فيما بين يدينا من قول الناظم (فالهجر والوصل) يجعل القارئ يقع في حيص بيص، فما الذي عطفه الشاعر على الهجر والوصل. وأين الترتيب في العطف... وبالتالي وبالرغم من جمال التضاد فيما بين (الهجر والوصل) نجد أن (الفاء) تفسد هذا الجمال.

ثم عطف على ما سبق قوله: (وحب مجنون ليلى) وهنا أيضاً لا نجد رابطاً يربط بين الأمور التي عطفها الناظم على بعضها. ولا توجد هناك قرينة تدل على أن الجمع بينهم بالعطف واجب، والأمور الثلاثة هي: (فالهجر والوصل، والدنيا وما حملت، وحب مجنون ليلى)، وأما المعطوف الرابع فهو ما يأتي قبل قوله: (فالهجر والوصل) وهو البيت السابق عليه، والذي لا توجد فيه أية رابطة تربطه بما بعده وهو قوله: رصع بها هامة التأريخ رائعة... البيت.

وإذا ما حاولنا بذل الجهد في إيجاد رابط يربط بين الأمور الثلاثة: (الهجر والوصل - الدنيا وما حملت - وحب مجنون ليلى) ربما وجدنا رابط النكد والهم والحزن والحرص على عدم فقد ما يحب المرء وما يشتهي هو الذي يجمع بين الثلاثة. لماذا؟ لأن بين الهجر والوصل عذاب وخوف وحرص من أن يفقد الإنسان من يحبه، والدنيا وما حملت فيها من عذاب وخوف وحرص على أن يستمتع الإنسان بالدنيا وما فيها من مباهج، وحب مجنون ليلى فيه عظة

وموعظة بأن الخل لا بد أن يفارق خليله، والمحب لا بد أن يفارق حبيبه، إذن يجمع بينهم الحزن والشقاء، ولكن ما الذي يجمع بين هؤلاء الثلاثة وبين ما قبلهم وهو العطف في قول الناظم فالهجر والوصل حيث عطفه على قوله: (رصع بها هامة التاريخ).

وقول الناظم: (مجنون ليلى) يقصد به: قيس بن الملوح بن مزاحم العامري، شاعر غزل، من المتيمين من أهل نجد، لم يكن مجنوناً. وإنما لقب بذلك لهيامه في حب ليلى بنت سعد، قيل في قصته: نشأ معها إلى أن كبرت وحجبها أبوها، فهام على وجهه ينشد الشعر، ويأنس بالوحوش، فيُرى حيناً في الشام، وحيناً في الحجاز، إلى أن وجِدَ مُلقى بين أحجار وهو ميت، فحُمل إلى أهله، وقد جمع بعض شعره في ديوان[1].

ثم يؤكد الشاعر على فكرة معينة، وعلى معنى يريد من القارئ أن يصل إليه، وهو أن الأمور الثلاثة التي عطف بعضها على بعض وهي للتذكير (فالهجر والوصل - والدنيا وما حملت - وحب مجنون ليلى) تمثل الضلة للعمى، وتسبب له الحيرة والضياع وعدم الوصول إلى الطريق المستقيم؛ لأن الأمور الثلاثة تمثل هوى النفس الذي لو تبعه إنسان لضل، ووقع في الضلالة والغي، ولعل هذا المعنى ما فقدناه ووصلنا إليه عندما قررنا أن الأمور الثلاثة يجمع بينها الحزن والألم والهوى..

وينتقل الناظم بعد ذلك إلى مجموعة من الأبيات التي لا رابط يربط بينها، ولا رابط يربطها بما قبلها، ولا رابط يربطها بما بعدها، ويخيل لمن يقرؤها أنها لا علاقة لها بالفخر، أو بالمدح، أو بالتحدي بهذه الميمية، وهذا

---

١ - الأعلام ج٥ص٢٠٨.

على قدر فهمنا المتواضع، وجهدنا الخجول في تحليل الأمور، حيث يستطرد الناظم ويقول:

١٢- دَعِ[١] المغَانِيَ[٢] وأطلالَ[٣] الحَبِيبِ ولا
تَلْمَحْ[٤] بِعَينِكَ بَرْقاً[٥] لاحَ[٦] في أَضَمِ[٧]

١٣- وَانْسَ الخَمَائِلَ[٨] والأفْنَانَ[٩] مَائِلَةً
وَخَيْمَةً وَشُوَيْهَاتٍ بِذِي سَلَمِ

١٤- هُنَا ضِيَاء[١٠] هُنَا رَيٌّ[١١] هُنَا أَمَلٌ[١٢]
هُنَا رَوَاءٌ[١٣] هُنَا الرِّضْوَانُ[١٤] فَاسْتَلِمِ

---

(١) دع: اترك وهجر. ودعك الشيء: أي اتركه. من قولك دعك فلان: أي تركته وخليته. وكقولك: من يدع الصلاة فقد كفر على مذهب أحمد بن حنبل وغيره، ويدع الصلاة: أي يتركها ويهجرها.

(٢) المغاني: المنازل التي كان بها أهلوها. واحدها مغنى. وقيل: المغنى هو المنزل الذي غنى به أهله ثم ظعنوا عنه.

(٣) أطلال: ما بقي شاخصاً من آثار الديار.

(٤) تلمح: لمح يلمح: اختلس النظر. واللمحة: النظرة بالعجلة، وفي الحديث أنه كان يلمح في الصلاة ولا يلتفت.

(٥) برقاً: قال ابن عباس: البرق سوط من نور يزجر به الملك السحاب. والبرق الذي يلمع في الغيم.

(٦) لاح: ظهر. لاح الشيب في رأسه بدا، لاح البرق: أومض.

(٧) أضم: الأضم الحقد والحسد والغضب. وأضم عليه: غضب عليه.

(٨) الخمائل: مفردها خميلة. وهي الشجر الكثير الملتف المجتمع الذي لا يرى فيه الشيء إذا سقط وسطه. وقيل: الخميلة هي كل موضع كثر فيه الشجر أينما كان.

(٩) الأفنان: واحدتها فنن. هو الغصن المستقيم من الشجرة.

(١٠) ضياء: نور. أضاء الشيء ضوءاً وضياءً أن أنار وأشرق.

(١١) ري: الماء العذب.

(١٢) أمل: رجاء. وأكثر استعماله فيما يستبعد حصوله. والجمع آمال.

(١٣) رواء: المنظر الحسن.

(١٤) الرضوان: الرضا.

وحقيقة الأمر أن هذه الأبيات كان يمكن أن نضيفها إلى البيت السابق عليها، وهو قول الشاعر: (فالهجر والوصل.... البيت) كون هذه الأبيات كل منها يمثل معنى خاصاً مستقلاً بنفسه، ولكن لمحنا أن البيتين (١٢-١٣) بهما مجموعة من النصائح والإرشادات فضممناهما إلى بعضهما، وألحقنا بهما البيت (١٥) كونه خاتمة، ختم به الناظم فكرته.

وقوله: (دع المغاني) أسلوب إنشائي في صورة أمر، الغرض منه النصح والإرشاد، مستأنفاً بهذا الأمر مجموعة النصائح السابقة مثل قوله: (دع سيف ذي يزن - ولا تعرج على كسرى....). ثم يعطف على المغاني التي سوف يتركها ويهجرها مجموعة أخرى من المتروكات وهي (المغاني - أطلال الحبيب - برقاً لاح في أضم) أي يترك ما يذكره بالآثار والديار وكذا الحقد والحسد، أو أي بريق من بارقة الغضب تلمع وتلوح.

ثم يأمره أيضاً بصيغة الأمر التي يغلفها دائماً بغرض أساسي وهو النصح والإرشاد، يأمره أن ينسى مجموعة أمور أهمها (الخمائل - الأفنان - الخيمة - شويهات بذي سلم). وكل هذه الأمور التي يركز عليها الناظم تعبر عن نعيم الدنيا الزائل وزخرفها وزينتها التي ستؤول إلى زوال.

وقوله: (برقاً لاح في أضم) يذكرنا بقول البوصيري في ميميته نهج البردة:

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

وأومض البرق في الظلماء من أضم[1]

(١) المعارضات في الشعر العربي ص١٨٤.

وكذا قول ناصر الزهراني في ميميته أيضاً مدح الرسول ﷺ:

أســـتـــغـــفـــر الله مـــا ليـلـى بـفـاتـنـتـي

ولا ســـــعـــاد ولا الجـــيـــــران في أضـــم[١]

وإن كان كل منهم استخدم كلمة (أضم) بما يتلاءم مع ما يرمي إليه، وما يخدم فكرته ويؤيد معناها ويزيده وضوحاً.

أما قوله: (هنا ضياء - هنا ري - هنا أمل - هنا رواء - هنا الرضوان) ففيه إرشاد للطريق الذي يجب أن يسلكه القارئ؛ لأن في نهايته الرضا والقناعة (والرضوان) والبيت فيه موسيقى داخلية تتبع من حسن التقسيم.

وقوله: (فاستلم) أسلوب إنشائي في صيغة أمر الغرض منه التمني والرجاء حيث يتمنى الناظم أن يعمل القارئ بالنصائح التي قدمها له.

ثم ينتقل الناظم بعد ذلك إلى الفخر بميميته والتحدي مرة أخرى، وذلك بعد أن فصل بين التحدي الأول للنابغة وعنترة وزهير... بالأبيات السابقة والتي تحدثنا عنها ورأينا أنها في غير مكانها الطبيعي؛ لأنه يقول بعدها:

١٥- لَـوْ زُيْنَـتْ[٢] لامْـــرِئِ الْقَـــيْسِ انْزَوَى[٣]

خَـجَـلاً[٤] وَلَوْ رَآهَا لَبِـيْـدُ الْشِـعْـرِ لمْ يَقُمِ

---

(١) السراج المنير ص ٩٥.

(٢) زينت: أي حسنت وجملت وبهجت. والزينة: اسم لجامع لكل ما يتزين به.

(٣) انزوى: تنحى. وزوى الشيء فانزوى: أي نحاه فتنحى.

(٤) خجلاً: قال الفراء: الخجل الاسترخاء من الحياء، ويكون من الذل. الخجل التحير والدهشة من الاستحياء. وقال ابن سيده: الخجل أن يلتبس الأمر على الرجل فلا يدري كيف المخرج منه.

١٦- مِـيْـمِـيَّـةٌ لَوْ فَـتَى بُوْصِـيـرَ أَبْصَـرَهَا

لَـعَـوَّذُوهُ[١] بِـرَبِّ الحَـلِّ وَالحَـرَمِ

١٧-سَلْ شِعْرَ شَوْقِي أَيَرْوِي[٢] مِثْلَ قَافِيَتِي[٣]

أَو أَحْـمَـدَ بْنَ حَـسَـنٍ فِي بَنِي حَكَمِ

١٨- مَا زَار سُوقَ عُكَاظٍ مِثْلُ طَلْعَتِهَا[٤]

هَامَتْ[٥] قُلُوْبٌ بِهَا مِنْ رَوْعَةِ[٦] النَّغَمِ[٧]

وقبل أن نتناول الأبيات بالشرح والتعليق والتحليل. نحاول بذل جهد متواضع لكي نرد الأبيات إلى ما ينبغي أن تكون عليه؛ ولكي يتسنى لنا ذلك نعرض الأبيات التي بها خلل في ترتيب الفكرة والمعنى ثم نحذف ما يخل بالمعنى لنعيد ترتيبها مرة أخرى والأبيات كالآتي:

يزري بنابغة النعمان رونقها

ومن زهير وماذا قال في هرم

---

(١) عوذوه: أي طلبوا العوذ واللجوء والاعتصام.

(٢) يروي: روى الشعر يرويه أنشده.

(٣) قافية: آخر جزء في بيت الشعر، وقد يكون كلمة أو بعض كلمة وجمعها قواف.

(٤) طلعتها: بهائها وجمالها وحسنها.

(٥) هامت: عشقتها عشقاً شديد الوجد والحب. وهامت القلوب بها: شغفت بها حباً.

(٦) روعة: الرائع والروع والرائعة الروعة: ما جاوز الحد في نواحي الفن والأخلاق والفكر. والروعة المسحة من جمال. والرائع: الذي يروعك حسنه ويعجبك.

(٧) النغم: النغمة جرس الكلمة وحسن الصوت في القراءة. لسان العرب.

دع سيف ذي يزن صفحاً ومادحه

وتُبَّعاً وبني شداد في إرم

ولا تعرج على كسرى ودولته

وكل أصيد أو ذي هالة وكمى

وانسخ مدائح أرباب المديح كما

كانت شريعته نسخاً لدينهم

رصع بها هامة التاريخ رائعة

كالتاج في مفرق بالمجد مرتسم

فالهجر والوصل والدنيا وما حملت

وحب مجنون ليلى ضلة لعمي

دع المغاني وأطلال الحبيب ولا

تلمح بعينك برقاً لاح في أضم

وانس الخمائل والأفنان مائلة

وخيمة وشويهات بذي سلم

هنا ضياء هنا ري هنا أمل

هنا رواء هنا الرضوان فاستلم

لو زينت لامرئ القيس انزوى خجلاً

ولو رآها لبيد الشعر لم يقم

ميمية لو فتى بوصير أبصرها

لعوذوه برب الحلِّ والحرم

سل شعر شوقي أيروي مثل قافيتي

أو أحمد بن حسين في بني حكم

ما زار سوق عكاظ مثل طلعتها

هامت قلوب بها من روعة النغم

فإذا ما ألقينا نظرة على الأبيات السابقة وجدناها مكونة من خليط يمثل نصحاً وفخراً وتحدياً وأبياتاً لا علاقة لها بهذا ولا بذاك؛ ولذلك كان من الأفضل أن يرتب الناظم أبيات الفخر والتحدي كالآتي:

ميمية لو فتى بوصير أبصرها

لعوذوه برب الحلِّ والحرم

يزري بنابغة النعمان رونقها

ومن زهير وماذا قال في هرم

لو زينت لامرئ القيس انزوى خجلاً

ولو رآها لبيد الشعر لم يقم

مـــا زار ســـوق عكـاظ مـــثل طلعـــتـــهـــا

هـامت قـلـوب بـهـــــا مـن روعـة الـنـغـم

سل شـعـــر شـــوقي أيـروي مـثل قـافـيـتي

أو أحـــــمـــد بن حـــــسين في بـنـي حـكـم

ويمكن أن نرتبها أيضاً ترتيباً آخرَ يعطيها رونقاً وجمالاً وبهاءً ونقوِّي من خلاله الفكرة ونؤكد المعنى كالآتي:

مـيـــمـيـــة لو فـــتى بوصـيـــر أبصـــرها

لـعـــوذوه بـــرب الحـلِّ والـــحـــــــرم

مـــا زار ســـوق عكـاظ مـــثل طلعـــتـــهـــا

هـامـت قـلـوب بـهـــــا من روعـــــة الـنغـم

لو زينت لامـرئ القـــيس انزوى خـــجـــلاً

ولـو رآهـا لبـــيـــد الشـــعـــر لم يقـم

يـزري بـنـابغـة الـنعـــــمـان رونـقـــــهـا

ومـن زهـيـــر ومـــاذا قـــــــال فـي هـــرم

سل شـعـــر شـوقي أيروي مـــثل قـافـيـتي

أو أحـمـــــد بـن حـــــسين في بـنـي حكـم

أما أبيات النصح والإرشاد فيمكن ضم بعضها إلى بعض؛ لكي تتمم المعنى بحيث لا يفصل بينها بيت من المدح أو الفخر أو التحدي كالآتي:

دع المغـاني وأطـلال الحـبـيـب ولا
تـلمـح بعـيـنـك بـرقـاً لاح في أضـم
وانس الخـمـائـل والأفنـان مـائـلة
وخـيـمـة وشـويـهـات بـذي سلـم
دع سـيف ذي يزن صـفـحـاً ومـادحـه
وتُبَّـعـاً وبـنـي شـداد فـي إرم
ولا تعـرج عـلـى كـسـرى ودولتـه
وكـل أصـيـد أوذي هـالـة وكـمـى

ثم بيتي الفخر ويمكن أن يتم تحديد موضعهما قبل الأبيات التي شملت التحدي والبيتين هما:

رصع بـهـا هـامـة التـاريـخ رائعـة
كـالتـاج في مـفـرق بالمجـد مـرتسم
وانسـخ مـدائـح أرباب المديـح كـمـا
كـانـت شـريعـتـه نسـخـاً لدينـهـم

ثم بعد ذلك يختم بالبيت الذي يلخص فيه كل ما سبق وهو قوله:

هنـــا ضـــــيـــــــاء هنـــا ري هنـا أمـــل

هنـا رواء هنـا الرضـــوان فـــاســـتـلم

ثم يبدأ بعد ذلك في مدح الرسول ﷺ فيقول بعد البيت السابق:

أثـنـــي عـلـى مـن؟ أتـــدري مـنْ أبـجِّـلُـه؟

أمـــا علمـت بـمـن أهديتـــه كـلمـي؟

والآن نعود إلى الأبيات الأربع التي لم نعلق عليها، فنقول: إن قول الناظم: (لو زينت لامرئ القيس) فهو يعني امرأ القيس الكندي، أشهر شعراء العرب على الإطلاق.

وكأن الناظم هنا يشعر بنشوة الانتصار على شاعر مجيد من شعراء الطبقة الأولى ومن فحول الشعراء، كون هذا الشاعر لن يستطيع الدفاع عن نفسه أو الرد عليه أو مجاراته؛ لأنه لا وجود له؛ ولكن معلقة امرئ القيس وشعره باق ويصلح للمقارنة لكل من أراد أن ينازل امرأ القيس في الشعر، أو يعقد موازنة في الصور والتشبيهات والموسيقى والقافية، وحسن الاستهلال وحسن الخاتمة..

أما إذا نظر القارئ إلى هذا التحدي باعتبار أنه نوع من أنواع الفخر والمديح والإطراء والإعجاب بالميمية، وليس من أجل مقارنة حقيقية تشمل كافة جوانب الشعر فهذا جائز، وهذا ما فعله أحمد شوقي وغيره[1]، ونعتقد أن هذا ما قصده عائض القرني هنا.

---

(١) وهذا المسلك من الشعراء يدعو للدهشة والعجب: هل لكي تفتخر تتحدى ميتاً ؟ فهذا ما لاحظناه ورصدناه أن الشعراء لا يتحدون غالباً إلا الأموات، ولا يجرؤ أحدهم أن يتحدى بعضهم بعضاً جهاراً نهاراً لكي نرى العجب ونرى ما سيسفر عنه تحدي الحي للحي، والحي هو الله عز وجل.

وأما قوله: (انزوى خجلاً) فنرى أنه عبَّر بصيغة الماضي في مسألة (الانزواء) وكأن المسألة أو الأمر لا يحتمل شيئاً فهذه هي النتيجة الحتمية إذا زُينت لامرئ القيس، ودائماً التعبير بالفعل في صيغة الماضي يدل على أن المسألة منتهية، كقولك مثلاً: (رسب فلان) أي أن الأمر انتهى وتمت عملية الرسوب، وليس هناك مجال للتفكير في الأمر، وهل سيرسب أم لا؟ وهذا ما فعله الناظم، لقد تحدى امرأ القيس وأصدر النتيجة التي لا تحتمل الشك معبراً عنها بصيغة الماضي: (انزوى خجلاً) فهذا الشاعر (الضليل) أو (الملك الضليل) كما يلقب لن يتحمل وسيقع في حيرة وسيتنحى جانباً من شدة حرجه وخجله وحيائه؛ لأن هذه الميمية سيكون لها تأثيرها القوي عليه الذي سيجعله يتنحى جانباً ويلزم الصمت.

وأما قوله: (ولو رآها لبيد الشعر لم يقم)[1] فهو استمرار لتحدي فطاحل الشعراء الأموات، فبعد أن تحدى الناظم النابغة وزهيراً - وعنترة وامرأ القيس جاء دور لبيد.

وقول الناظم: (ميمية لو فتى بوصير أبصرها..) فإنما قصد البوصيري صاحب ميمية البردة أشهر ما مدح به الرسول (وأيضاً أطول ما مدح به إذ تبلغ ميميته ستين ومئة بيت) ومطلعها:

أمن تذكر جيران بذي سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

---

(١) لم يقم: أي يثبت مكانه لا يتقدم ولا يتأخر. منه قولك قامت الدابة: إذا وقفت عن السير، وقيل: القيام بمعنى الإصلاح والمحافظة والملازمة كقوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي حافظين مصلحين ملازمين لذلك. ولم يقم: أي كناية عن كون لبيد سيلزم التحير ولن تقوم له في الشعر قائمة.

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

وأومض البرق في الظلماء من أضم

وأما قول الناظم: (سل شعر شوقي أيروى مثل قافيتي). (فسل) أسلوب إنشائي في صورة استفهام، وهو يدل على التمكن من القضية المطروحة، وهي أن شوقي لن يستطيع أن يروي مثل قافيته، وهي كناية عن القضية، وفيها مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث ذكر الجزء وقصد الكل، أي الميمية كاملة أو قصيدة كاملة، وربما تحتمل الكناية عن قصيدة بقافية ميمية مثل ميميته. و (أيروي) أسلوب إنشائي في صورة استفهام الغرض منه الإنكار، أي أنه ينكر على شوقي أن يرقى إلى مكانته ويروي قافية مثل قافيته، بيت الشعر في مجمله فيه استمرار التحدي لكتيبة الأموات من الشعراء.

وأحمد شوقي أو شوقي كما ذكره الناظم فهو: أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي. أشهر شعراء العصر الأخير يلقب (بأمير الشعراء).

وأما قول الناظم: (أو أحمد بن حسين في بني حكم) فإنه قصد بذلك أبا الطيب المتنبي الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، صاحب الأمثال السائرة والحكم البالغة، والمعاني المبتكرة.

ثم ينتقل بعد ذلك الناظم إلى ما يسمى بالتحدي الكبير، وهي آخر مرحلة من مراحل التحدي، حيث يتحدى بهذه الميمية شعراء سوق عكاظ أجمعهم فيقول:

(ما زار سوق عكاظ مثل طلعتها)، وقوله: (ما زار) أسلوب إنشائي في صورة نفي، يؤكد من خلاله قوة التحدي، وفوزه في هذا التحدي، مستخدماً

أداة النفي (ما) مع الفعل الماضي، وهذا التركيب من أنواع النفي يؤكد على نفي مجيء قصيدة إلى سوق عكاظ مثل هذه الميمية لا في الماضي ولا في الحاضر، وربما المستقبل أيضاً، ولتوضيح ذلك لو قلنا: (ما رسب فلان) أي أنه ما رسب في الماضي أو في الحاضر.

أما سوق عكاظ هذا فهو: المنتدى العربي الأول في العصر الجاهلي للشعر والأدب، فعكاظ يعد مجمعاً أدبياً لغوياً رسمياً له مُحكِّمون، تضرب عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم، فما استجادوه فهو الجيد، وما أعرضوا عنه فهو المستهجن، وحول هذه القباب المضروبة يقف الرواة والشعراء من كافة القبائل، فما إن ينطق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الشعراء والرواة القصيدة الفائزة، فتسير بها الألسن في أغوار الجزيرة وأنجادها، وتلهج بذكرها ألسنتهم في البوادي والحواضر[١].

ويبدو أن سوق عكاظ استهوى ناظمنا لمكانته، فكرر الفكرة نفسها في نونيته، معلناً تحديه أيضاً لكل من ينزل هذا السوق العربي الأدبي فيقول:

وعكاظ لم تسمع بمثل دويها
نسخت قريض النابغة الذبياني[٢]

وأما قوله: (هامت قلوب بها من روعة النغم) فنجد أن تعبيره بالفعل الماضي (هامت) يدل على انتهاء الحديث في هذا الشأن، وأنه لا مجال أمام القلوب لكي تتخير هل تهيم بها أم لا؟ فهي مجبورة ومقهورة ومكرهة على أن

(١) أسواق العرب للأفغاني ص ٢٧٧.
(٢) شرح نونية الشيخ عائض ص ٨، ٦٥، ٦٦.

تهيم بها من روعتها ورونقها وحلاوتها وطلاوتها، وحسن بريقها وسحر موسيقاها الداخلية والخارجية، وجمال صورها البلاغية، وتشبيهاتها البديعة، وسمو معانيها، وصدق مشاعرها وعاطفتها، كونها في مدح محبة رسول الله ﷺ، فكل هذه العوامل مجتمعة لا بد أن تمارس تأثيرها على القلوب، فتجعلها تهيم بها حباً وعشقاً، ولا تترك له أي خيار آخر.

وأما تنكير كلمة (قلوب) وجمعها فيدل على التعدد والتنوع والكثرة، وتعدد هذه القلوب الهائمة من روعة النغم وتنوعها وكثرتها يدل على الإجماع التام من قبل هذه القلوب لهيامها بهذه الميمية الغراء العصماء، فهي ليست قلباً، ولا قلبين، وإنما قلوب كثر.

وبعد أن ينتهي ناظمنا من فخره بنفسه، وتحديه لنظرائه، ووصفه الرائع لميميته، يخلص من ذلك كله إلى بداية مدحه للرسول ﷺ مستخدماً الواقعية والمنطقية في تخلصه وانتقاله من الفخر إلى المدح فيقول:

جملة من صفاته ﷺ

١٩- أُثْني[١] عَلَى مَنْ؟ أَتَدْرِي مَنْ أُبَجِّلُهُ[٢]؟

أَمَا عَلِمْتَ بِمَنْ أَهْدَيْتُهُ كَلِمِي؟

وقوله: (أُثني على منْ) أسلوب إنشائي في صورة الاستفهام الغرض منه جذب الانتباه وإعمال الذهن للوصول إلى حقيقة الشخصية الممدوحة، والمخصوصة بالثناء والتقدير، وفي طيات الاستفهام الوصول إلى حقيقة ونتيجة منطقية لا تحتمل الشك في شخصية الممدوح أو الأخذ والرد، فرسول الله (يستحق المدح والثناء والتبجيل والتوقير، على أخلاقه وصفاته وأفعاله، وشيمه وخصاله، وذكائه وحكمته)... وقد جمع رب العزة هذه الأخلاق وهذه الصفات في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣] وجاء في الكشاف في تناول هذه الآية بالشرح والتعليق، استعظم الله عز وجل ـ خلقه ـ (لفرط احتماله الموجعات من قومه، وحسن مخالفته ومداراته لهم). وقيل: الخلق العظيم:هو الخُلق الذي أمره الله تعالى به في القرآن في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٤]. وعن عائشة أن سعيد بن هشام سألها عن خُلق رسول الله فقالت: «كان خلقه القرآن، ألست تقرأ القرآن؟ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾» [٥].

---

(١) أثني: الثناء هو ما تصف به الإنسان من مدح أو ذم وخص بعضهم به المدح .

(٢) أبجله: أعظمه وأوقره.

٣ - سورة القلم آية (٤).

٤ - سورة الأعراف آية (١٩٩).

٥ - الحديث أخرجه مسلم في صحيحه من رواية زرارة بن أبي أوفى عن سعيد بن هشام.

ولذا فمن المنطقي أن يسير المؤمنون على هذا النهج القرآني القويم في مدح نبيهم، فتبارى الكثير من الشعراء والأدباء يمتدحونه ﷺ، ويمتدحون خلقه وصفاته، ومن ذلك قول ناصر الزهراني:

غنَّى فـــؤادي وذابـت أحـــرفي خـــجـلاً

ممـن تألـق في تبـــجـــيلـه كـلمـــي[١]

وقـول عـبـد العـزيـز بن سـرايا بن علي بن أبي القـاسم السنبسي الطائي الشهير بصفي الدين الحلي:

مـــحـــمـــد المصطفـــى الهـــادي الأمين

أجل المرسلين بن عـــبـــدالله ذي الكرم[٢]

وقوله أيضاً من القصيدة نفسها التي أسماها الكافية البديعية في المدائح النبوية:

خـــيـــر النبـــيين والبـــرهـان مـــتـــضـح

في الفـــجـــر عـــقـــلاً ونقـــلاً واضح اللغم[٣]

وقول شوقي في ميميته نهج البردة:

لقـــبـــتـــمـــوه أمين القـوم في صـــغـر

ومـــــا الأمين علـى قـول بمتـــــهـــم

(١) السراج المنير ص ١٠٨.

(٢) المعارضات في الشعر العربي ص ٢٠٢.

(٣) المرجع السابق.

فـــاق البـــدور وفـــاق الأنبـــياء فكـم

بـالخلق والخلـق مـن حـــــسن ومن عـظم[١]

وأما قول الناظم: (أتدري من أبجله) ففيه أيضاً تحفيز لذهن القارئ لكي يعمل إلى الوصول إلى فك غموض شخصية الممدوح، فهو يصرُّ، على إثارة ذهن القارئ من خلال تعدد الأسئلة وتنوعها، ولذا سأل أيضاً: (أما علمت بمن أهديته كلمي)[٢]، وفي التساؤل محاولة من الناظم لإعانة القارئ لحل هذا اللغز، فلا يوجد من يستحق أن يُهْدى إليه القصيد والمديح إلا شخصية واحدة هي: سيدنا محمد ﷺ، ثم يبدأ بعد ذلك في وصف هذه الشخصية الممدوحة، لعل القارئ من خلال تعرضه على هذه الصفات يستطيع أن يصل إلى هذه الشخصية التي أهداها كلامه ومديحة فيقول:

٢٠- في أَشْجَعِ النَّاسِ قَلْباً غَيْرَ مُنْتَقِمِ[٣]

وَأَصْدَقِ الخَلْقِ طِرّاً[٤] غَـيْـــرَ مُـــتَّـــهَمِ

ويقول الناظم في إزالة الغموض الذي لحق بالشخصية الممدوحة: إنني سوف أهدي كلامي وقصيدي وحلو بياني وبلاغتي لأشجع الناس قلباً على الإطلاق بين بني البشر، وقد أكد الناظم كلامه من خلال استخدامه لأفعل التفضيل في قوله: (أشجع) ليدلل على عدم وجود منافسة أو مقارنة بينه وبين أي أحد - من خلق الله عز وجل - من بني البشر.

---

(١) الشوقيات ج١ ص ١٩٧.

(٢) الظاهر عندنا أن الأفضل من قوله: (بمن أهديته كلمي) أن تكون: (لمن أهديته كلمي).

(٣) منتقم: أي ما عاقب أحداً على مكروه أتاه من قبله.

(٤) طراً: طر طروراً أي كان طريراً ذا رواء وجمال. والطرير ذو المنظر والرواء والهيئة الحسنة.

وقد وفق الناظم أيما توفيق في ميله إلى استخدام أسلوب المفاضلة بين الرسول ﷺ، وبين غيره، ولا سيما استخدامه لأسلوب (أفعل التفضيل).

وأيضاً مدح شجاعته ﷺ أحمد شوقي في (الهمزية النبوية) فقال:

وإذا مشيت إلى العدا فغضنفر

وإذا جريت فإنك النكباء

وتمد حلمك للسفيه مداريا

حتى يضيق بعرضك السفهاء[1]

ويقول أيضاً أحمد شوقي في ميميته (نهج البردة) في وصف شجاعته ﷺ:

والليث دونك بأساً عند وثبته

إذا مشيت إلى شاكي السلاح كمي

تهفو إليك وإن أدميت حبتها

دربا وأبعدهم عن ريبة التهم[2]

وقد وصف كثير من الشعراء شجاعته، ومنهم قول ناصر الزهراني في السراج المنير حيث يقول:

أنت الشجاع إذا الأبطال ذاهلة

والهندواني في الأعماق واللمم

---

٢ - الشوقيات ج١ ص ٣٦

١ - السراج المنير ص ١٠٠.

فكنت أثبتهم قلباً وأوضحهم

في الحرب ـ أفئدة الأبطال والبهم[١]

فإذا ما تركنا الشعر والشعراء ووصف شجاعته ﷺ وجدنا من سيرته العطرة ما يؤكد هذه الشجاعة التي وصف بها، فقد حكى ابن هشام في سيرته الكثير من المواقف التي تثبت شجاعته ﷺ، ومنها:

قال ابن إسحاق: وحدثني أبو إسحاق بن يسار، قال: كان ركانة بن عبديزيد ابن هشام بن عبد المطلب بن عبد مناف أشد قريشاً، فخلا يوماً برسول الله ﷺ، في بعض شعاب مكة، فقال له رسول الله ﷺ: يا ركانة، ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟ قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك، فقال له رسول الله ﷺ: أفرأيت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقوله حق؟ ". قال: نعم، قال: فقم حتى أصارعك. قال: فقام إليه ركانة يصارعه، فلما بطش به رسول الله ﷺ، أضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئاً، ثم قال: عد يا محمد، فعاد فصرعه، فقال: يا محمد: والله إن هذا للعجب أتصرعني[٢]؟.....

ومما يروى عن شجاعته المحمدية أيضاً، أنه ﷺ، ركب فرساً لأبي طلحة ليلاً لقرع ناب أهل المدينة، فلما رجع قال: لن تراعوا لن تراعوا[٣].. أي لا فزع ولا روع، فاسكنوا واهدؤوا. فقد تقدمهم ﷺ، جميعاً عندما شعر أن هناك ثمة خطر يواجه المدينة، أي إنه نعم القائد، ونعم الراعي المسؤول عن رعيته، وقد شهد بشجاعته أصحابه الشجعان الأبطال، ومن ذلك شهادة علي بن أبي طالب

---

(١) الشوقيات ج١ ص ٢٠٠.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ٤١.

(٣) حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ١١٦، ١١٧.

رضي الله عنه وكان من أبطال الرجال وشجعانهم بلا مراء حيث قال: كنا إذا حمي البأس، واحمرت الحدق، نتقي برسول الله ﷺ. أي نتقي الضرب والطعن.

أما شجاعته ﷺ وإقدامه في الحروب، فالحديث فيها يطول، فمن ذلك مثلاً موقفه ﷺ في أحد، حيث فر الكماة، ووجم الأبطال، عن أنفسهم الشجعان، فوقف ﷺ كالجبل الأشم، حتى لاذ به أصحابه، والتفوا حوله، وقاتلوا حتى انجلت المعركة بعد قتال مرير[١]....

وأيضاً موقفه في أحد عندما رأى أُبي بن خلف النبي ﷺ فقال صائحاً: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا، وتقدم على فرسه نحو رسول الله ﷺ فاعترضه رجال من المسلمين، فقال لهم ﷺ: «خلوا طريقه» وتناول الحربة من يد الحارث ابن الصمة، وانتفض انتفاضة تطاير عنه أصحابه تطاير الوبر من ظهر البعير إذا انتفض، واستقبله بطعنة نجلاء في عنقه تدأدأ[٢] منها عن فرسه مراراً وهو يقول: قتلني محمد[٣].

أما مواقفه ﷺ في غزوة حنين، فحدث ولا حرج، حيث انهزم أصحابه وفر رجاله لصعوبة مواجهة العدو،... فبقي وحده ﷺ في الميدان يطاول ويصاول وهو على بغلته يقول:

أنـــــا الـــنـــبـــــي لا كـــــــذب

أنـــا ابـــن عـــــــبـــــد المـطـلـب

---

(١) هذا الحبيب يا محب ص ٥٣١.

(٢) تدأدأ: تدحرج وسقط.

(٣) هذا الحبيب يا محب ص ٥٣١.

وأخذ ينادي على أصحابه إليَّ عباد الله!! إليَّ عباد الله... حتى فاء أصحابه إليه، وعاودوا الكرة على العدو فهزموهم في ساعة.

هذا هو الرسول الشجاع ﷺ، والذي يعد كما وصفه الناظم: (أشجع الناس) نخلص من مواقف شجاعته على استحياء فهي لا تنتهي؛ لننتقل إلى قول الناظم في وصف قلبه ﷺ: (قلباً غير منتقم) حيث يؤكد الناظم أن قلبه ﷺ لا يعرف الانتقام، فهو قلب لا يحمل غلاً ولا حقداً ولا كرهاً ولا بغضاً ولا ضغينة لأحد، فالله عز وجل قد نقى قلبه مما يدنسه من الغل والحقد والضغينة والكراهية. حيث يروى أنه في السنة الرابعة من مولده ﷺ، ذكر أن ملكين شقا بطنه واستخرجا قلبه، وشقاه، واستخرجا منه علقة سوداء، ثم غسلا قلبه وبطنه بالثلج، وقيل: إنه ﷺ شُقَّ صدره الشريف عند مجيء جبريل له بالوحي في غار حراء، ومرة أخرى عند الإسراء، وروي أيضاً أن الشق كان وهو ابن عشر سنين[١].

وقد روي في الحديث: «أنه ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك محارم الله»[٢]، أي أنه ﷺ ما عاقب أحداً على مكروه أتاه من قِبله، فمن منا يملك هذا القلب العفو المتسامح أو حتى بعضه.

وقد تبارى الشعراء في وصف هذا القلب ونعته، وأن عفوه دائماً يأتي من قلب متسامح، ولكن عن قدرة وليس عن ضعف، وقد صور ذلك أحمد شوقي في همزيته فقال:

---

(١) مختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب ص ٢٠، هذا المحب يا حبيب ص ٥٣٠، ٥٣١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٨٩.

وإذا عـــــفـــوت فـــــقـــادراً ومـــــقـــدراً

لا يســـتـــهـــيـــن بعـــفـــوك الجـــهـــلاء

وإذا رحـــمـــت فـــــــــأنـــت أم أو أب

هـــذان في الدنـيـا هـــمـــــا الرحـــمـــــاء

وإذا غـــضـــبـــت فـــإنـــمـــا هي غـــضـــبـــة

فـي الحـــق لا ضـــــغـــن ولا بـغـــــضـــاء

وإذا رضـــــيـــت فـــذاك في مـــــرضـــــاتـه

ورضـــى الـكـــثـــــــيـــر تحـلـــم وريـــاء

أمـا مواقـفـه الشـريفـة ﷺ والتي تدلل على أن بين جنبـاته ﷺ قلباً غيـر منتقم، قلباً يغفـر ويسامح، فهي كثيـرة جداً نذكر منهـا على سبيل المثال موقفه من غـورث بـن الحـارث الذي أراد قـتله فـعـفـا عنه ﷺ، فـيـروى أن غـورث بن الحارث تصدى لرسول الله ﷺ ليفتك به، ورسـول الله ﷺ مُطّرح تحت شجرة وحده قـائلاً، وأصحابه قـائلون كذلك، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وغـورث قائم على رأسـه، والسيف مـصلت في يده، وقـال: من يمنعك منـي؟ فـقـال ﷺ: «الله» فسقط السيف من يد غورث، فأخذه ﷺ وقال: «من يمنـعك» فقال غـورث: كن خير آخذ، فتركه الرسول ﷺ وعفا عنه[٢].

(١) هذا الحبيب يا محب ص ٥٢٩.

أما المثال الأكبر لقلبه الرؤوف الرحيم، فهو مثل لن يُنسى من تاريخ البشرية، فعندما فتح الله عليه مكة خطب في قومه، فقال لهم من ضمن خطبته: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء[١]. وكان هذا العفو هو العفو الكبير من قلب غير منتقم، من قلب نسي ما فعله به قومه، لم يتذكر هذا القلب إلا شيئاً واحداً العفو عمن أساء إليه.

فإذا ما تأملنا بعد ذلك قول الناظم: (وأصدق الخلق طراً غير متهم) وجدناه يستخدم مرة أخرى (أفعل التفضيل) لتأكيد نكرة معينة، وهي أنه لا يوجد أصدق منه في الخلق، في صدقه وأمانته (غير متهم) أي لا ترقى إليها الشكوك.

ورسول الله ﷺ كان يلقب بالصادق الأمين، قبل الدعوة، أما مواقفه التي تدل على صدقه وأمانته ﷺ فكثيرة جداً، ومن ذلك مثال مشهور يجمع بين صدقه ونبوته وبين إخباره بالغيب وصدقه في هذا الإخبار، وهو قوله ﷺ لسراقة بن مالك وقد خرج في ملاحقته يوم هجرته حيث أعطت قريش جوائز لمن يأتيها بمحمد، فقال له ﷺ وقد ساحت قوائم فرسه في الرض مرتين: «كيف بك إذا ألبست سواري كسرى»؟ فلما أتى بهما عمر رضي الله عنه ألبسهما إياه، وقال: «الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة» [٢]. وهذا يعد صدق في غيب محض تم كما أخبر به ﷺ.

ومن أمثلة صدقه ﷺ أيضاً قوله في سهيل بن عمرو: «عسى أن يقوم مقاماً، يسرك يا عمر» وذلك يوم صلح الحديبية حيث غضب عمر رضي الله عنه من

(١) سيرة ابن هشام ج٤ ص ٤١.

(٢) هذا الحبيب يا محب ص ٥١٧.

تعنت سهيل، وكان ممثلاً لقريش يومئذ فقال له ﷺ: «عسى أن يقوم مقاماً يسرك ياعمر» وكان الأمر كما أخبر به ﷺ، إذ مات الرسول ﷺ واضطربت البلاد، ونجم الكفر، ووقف سهيل بن عمرو رضي الله عنه بباب الكعبة بمكة فخطب فثبَّت أهل مكة وقوى بصائرهم، فحفظهم الله من الردة بسببه، وهو موقف سر عمر والمؤمنين[١].

أما الأشعار التي تغنت بصدقه وأمانته فهي كثيرة أيضاً، حيث تبارى الشعراء في هذا المجال كل يعمل ذهنه وقريحته ليأتي بأفضل شعر يعبر عن هذه القصة من جهة، ويعبر عن محبته لرسول الله ﷺ من جهة أخرى. ومن ذلك قول شوقي في همزيته النبوية:

بسوى الأمانة في الصبا والصدق لم
يعرفه أهل الصدق والأمناء[٢]

ويقول أحمد شوقي في ميميته (نهج البردة) أيضاً في صفة صدقه ﷺ:

يا جاهلين على الهادي ودعوته
هل تجهلون مكان الصادق العلم
لقبتموه أمين القوم في صغر
وما الأمين على قول بمتهم[٣]

---

(١) هذا الحبيب يا محب ص ٥٢٠، ٥٢١.
(٢) الشوقيات ج١ الهمزية النبوية ص ٣٥.
(٣) المرجع السابق ص ١٩٧.

ويذكر لنا د/ عبد الرحمن صالح العشماوي مجموعة من أخلاقه كصدقه وأمانته... إلخ فيقول:

هذا محمد يا قريش كأنكم
لم تعرفوه بعفة ووقار
هذا الأمين أتجهلون نقاءه
وصفاءه ووفاءه للجار
هذا الصدوق تطهرت أعماقه
فأتى ليرفعكم عن الأقذار[١]

ثم ينتقل الناظم بعد ذلك إلى وصف المزيد من أخلاقه وصفاته ﷺ فيقول:

٢١ - أبهى[٢] من البدر في ليل التمام وقل
أسخى[٣] من البحر بل أرسى[٤] من العلم[٥]

(١) ديوان عناقيد الضياء للدكتور عبد الرحمن صالح العشماوي صـ ١٠،٩ .
(٢) أبهى: أحسن وأجمل. بهى بهاءً أي حسن وجمل فهو بهي وهي بهية.
(٣) أسخى: أجود وأكرم، وسخا: جاد، سخي: كريم جواد.
(٤) أرسى: أثبت، رسا الشيء يرسو: ثبت، الرواسي من الجبال: الثوابت الرواسخ، رست قدمه: ثبتت في الحرب، الراسي: الثبت الراسخ.
(٥) العلم: الجبل، وقالوا: الأعلام: الجبال، وقال اللحياني: العلم الجبل، فلم يخص الطويل - أي لم يقل الجبل الطويل.

وقول الناظم: (أبهى من البدر) فيه استمرار لاستخدام أفعل التفضيل، مع عقد مقارنة بين رسول الله ﷺ وبين البدر في ليل التمام؛ ليفوز الرسول ﷺ في هذه المقارنة.

وبهاء الرسول ﷺ وجماله وحسنه ذكر في كثير من الأحاديث الشريفة، وتناول ذلك الأدباء والشعراء بشيء من التصوير الجميل في أشعارهم وكتاباتهم، ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما جاء في وصف صفاته الحسية ﷺ من أنه ﷺ كان وسيم الطلعة، ربعة في الرجال، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، ضخم الرأس، ذا شعر، رجل شديد السواد، واسع العينين، أبيض الوجه، مشوب بحمرة، على ملامحه سيم التفكير والتأمل، مستوى الأنف، مفلج الأسنان، كث اللحية، طويل العنق جميله، وفي نظرته سلطان الأمر الذي يخضع الناس لأمره.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأنورهم لوناً، لم يصفه واصف قط بمعنى صفته إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر، يقول: هو أحسن في أعين الناس من القمر، أزهر يتلألأ وجهه ﷺ تلألؤ القمر»[١].

وعن أبي إسحاق السبيعي قال: سأل رجل البراء بن عازب: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر[٢].

---

(١) حياة محمد / محمد حسين هيكل ص ٨٨.

(٢) رواه أبو نعيم الأصبهاني في الدلائل ص ٥٦٣، والبيهقي في الدلائل ١م٢٩٨.

وعن أبي إسحاق الهمداني عن امرأة من همدان سماها قالت: حججت مع النبي ﷺ فرأيته على بعير له يطوف بالكعبة بيده محجن، فقلت لها: شبهيه، قالت: كالقمر ليلة البدر لم أر قبله ولا بعده مثله.

ولو تركنا العنان للأحاديث التي ورد فيها تشبيه الرسول ﷺ بالبدر أو القمر فإن الحديث لا ينتهي، أما إذا انتقلنا إلى الأشعار وما ذكر فيها من حسن وجهه ﷺ سنجد أن الشعراء يتنافسون من أجل صياغة أحلى الصور في أحسن وجه وأجمل وجه، وجه الرسول ﷺ ومن ذلك قول أمير الشعراء أحمد شوقي في ميميته نهج البردة:

البـــــدر دونـك فـي حـــــسن وفـي شـرف

والبـــحـر دونـك في خـــيـــر وفي كـــرم[١]

ويقول فيها أيضاً:

كـــــأن وجـــــهك تحت الـنـقـع بـدر دجـىً

يضـيء ملتـــثـــمـاً أو غـيـــر ملتـــثـم

بـدر تـطـلـــع فـي بـــدر فـــــــغـــرتـه

كـــــغـرة الـنـصـــــر تجلو داجـي الظـلـم[٢]

ومن الشعراء من وصفه بالبدر، وليس وجهه فقط هو الذي يشبه البدر ومن ذلك قول أحمد شوقي السابق، وقول ناصر الزهراني في السراج:

---

(١) الشوقيات ج١ ص ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٠.

فـــجـــئـــت يا منقـــذ الإنســـان من خطر

كـــالبـــدر لما يجلـي حـــالـــك الظـلم[١]

وأيضاً قول د/ عبد الرحمن العشماوي:

مـــاذا يقـــول الشـــعـــر عن بدر الـــدجى

لَّما يـضـئ مـــجـــالـس الســـمـــار[٢]

وأما قول الناظم: (أسخى من البحر) ففيه تشبيه بالرسول ﷺ بالبحر في العطاء والكرم والجود والسخاء، ولكن مع فارق أنه يفوق البحر في هذه الصفات؛ وذلك لاستعمال الشاعر في تأكيد هذه الفكرة أفعل التفضيل.

ومواقف كرمه ﷺ كثيرة لا تحصى ولا تعد، فقد كان ﷺ نموذجاً للكرم والإنفاق، ورمزاً في العطاء والسخاء، فلا يوجد أسخى ولا أكرم منه ﷺ فما سأله مسلم قط إلا أعطاه، ولا لجأ إليه محتاج إلا أعانه، وفي ذلك يروى أن رجلاً جاءه فسأله فقال له ﷺ: «ما عندي شيء ولكن ابتع علي فإذا جاء ناشئ قضيناه»[٣] أفلا يدل هذا الموقف من أكرم خلق الله على شدة كرمه وهو الذي يلبي حاجة السائل وليس لديه شيء، نعم إنه أعلى درجات الكرم من رسول كريم.

وروي عن عائشة أيضاً: أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟» قالت: «ما بقي منها إلا كتفها»، فقال ﷺ: «بقي كلها غير كتفها» [٤]. ومعنى ذلك أنهم تصدقوا بها كلها إلا كتفها.

---

(١) السراج المنير ص ٩٩.

(٢) ديوان عناقيد الضياء للدكتور عبد الرحمن صالح العشماوي ص١١ .

(٣) هذا الحبيب يا محب ص ٥٢٦.

(٤) رواه الترمذي في سننه وقال حديث صحيح (٢٤٧٢).

وقد حث رسول الله المسلمين على العطاء، وعلى أن يجودوا بما لديهم، وأن ينفقوا في سبيل الله فقال ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» (١). وفي حديث آخر: «أنفق يا بن آدم ينفق الله عليك» (٢).

وحسبنا في الاستدلال على كرم رسول الله حديث البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه وقد سئل عن جود الرسول وكرمه فقال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحي فيدارسه القرآن، فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة(٣).

وقد تناول الشعراء هذا المعنى فأبدعوا في تصويره، ومن ذلك قول أحمد شوقي في الهمزية النبوية:

فإذا سخوت بلغت بالجود المدى

وفعلت ما لا تفعل الأنواء(٤)

وأما قول الناظم: (بل أرسى من العلم) فيقصد أنه ﷺ ثابت راسخ لا يتزحزح في الحرب، فهو رابط الجأش قوي الجنان، لا يهاب أعداءه، ومن أدلة ذلك شهادة عمران بن حصين ﷺ إذ قال: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب(٥).

---

(١) رواه البخاري ٣/٢٤١، ومسلم (١٠١٠).

(٢) رواه البخاري ٨/٢٦٥، ومسلم (٩٩٣).

(٣) هذا الحبيب يا محب ص ٥٢٦.

(٤) الشوقيات ج١ ص ٣٥.

(٥) هذا الحبيب يا محب ص ٥٣٢.

لقد كان رسول الله ﷺ كالجبل الراسخ الثابت، يثبت في ميدان القتال إذا ما اشتد الطعن والضرب، وإذا ما جبن الفرسان، وهرب الشجعان وجِد ﷺ ثابت الجنان.

أما إذا أراد الناظم بقوله: (أرسى من العلم) بأنه راسخ ثابت كالجبل مهما لاقى من صعوبات في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، وأنه ﷺ واجه العقبات والصعوبات من أجل نشر هذا الدين فثبت، وكان أرسى من الجبال الشم الثوابت الرواسخ، فهذا جائز أيضاً، كون الناظم لم يأت بقرينة تدل على ما أراد أن يصل إليه من معنى.

ثم ينتقل الناظم بعد ذلك إلى ذكر مجموعة أخرى من أخلاقه وصفاته ﷺ فيقول:

٢٢-أصفى[١] من الشمس في نطق[٢] وموعظة

أمضى[٣]من السيف في حكم[٤] وفي حكم[٥]

وقول الناظم: (أصفى من الشمس) فيه مقارنة بين الرسول ﷺ وبين الشمس، وأنه ﷺ يفوق الشمس، وحدد نوع المقارنة بينه ﷺ وبين الشمس في أمرين هما: (في نطق وموعظة).

---

(١) أصفى: صفا صفواً: خلص من الكدر، وتقول يوم صاف إذا كان صافي الشمس لا غيم فيه ولا كدر.

(٢) نطق: النطق الكلام، وصوت كل شيء نطقه. وتقول العرب: ماله صامت ولا ناطق أي ليس له حيوان أو طير... والصامت الذهب.

(٣) أمضى: أحد، وأمضى من السيف صار حاداً سريع نفاذ الأمر.

(٤) حُكْم: الحكم العلم والفقه والقضاء بالعدل. ولذا قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾. والحكمة: معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.

(٥) حَكَم: الحكم القاضي. والحكم: هو الذي يحكم الأشياء ويتقنها، والحكم الذي يفصل بين المتخاصمين.

أي أن الناظم لم يقصد أن يكون وجه المقارنة في الصفاء والنقاء، والضياء وهذا يجعلنا نتعرض لأمرين: الأمر الأول: أن هناك بعض الأحاديث التي شبهت الرسول ﷺ بالشمس، وهذه الأحاديث صحيحة، مثل ما روي عن جابر ابن سمرة، قال له رجل: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال لا، بل مثل الشمس والقمر مستديراً. (١)

وعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: قلت للربيع بنت معوذ: صفي لي رسول الله ﷺ قالت: «يا بني لو رأيته رأيت الشمس طالعة». وفي رواية البيهقي «لو رأيته لقلت الشمس طالعة»(٢).

إذن يبدو مما سبق أن الناظم ربما يكون قد تأثر بمثل هذه الأحاديث التي تصف الرسول ﷺ بالشمس، فاقتبس هذا الوصف، ولكن الناظم وظفه توظيفاً آخر، وأضاف إليه معنى جديداً، بغير المعنى الحسي في الشمس من نور وضياء وإشراق، وهذا هو الأمر الثاني. فهو لم يقصد أن الرسول ﷺ أصفى من الشمس في نورها وبهائها وجمالها وصفائها، وإنما لعله أراد أنه ﷺ أصفى من الشمس في قوة حجتها وبرهان سطوعها، فكما لا يمكن لإنسان أن يطفئ نور الشمس أو ينكر وجوده، باعتبار الشمس آية من آيات الله تنطق بالحق والموعظة، فكذا رسول الله ﷺ وتحتمل أيضاً أن رسول الله ﷺ أوتي جوامع الكلم، وأنه لا ينطق عن الهوى، لقوله عز وجل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾(٣). ويؤكد هذا الرأي قول الناظم: (في نطق وموعظة) أي في كلامه

(١) رواه أحمد والبيهقي في الدلائل، وإسناده صحيح.

(٢) رواه يعقوب بن سفيان، والبيهقي في دلائل النبوة.

(٣) سورة النجم الآيات (٢ - ٥).

ﷺ حين ينطق، وفي نصحه وإرشاده، وفي تذكيره للمسلمين بما يلين قلوبهم، وفي تحذيره لهم من ارتكاب المعاصي وعاقبة ذلك... وإن كان استخدام الناظم لكلمة: (أصفى) لم تربط بين نوع المقارنة بين الرسول ﷺ وبين الشمس بقرينة واحدة، فما ساقه الناظم في المقدمة مخالف لما توصل إليه، وبما أنه لا يجوز وصف بهاء وصفاء ونقاء الرسول ﷺ بالشمس مع عدم وجود قرينة تلازم هذا الوصف وتدل عليه، فقد كاد الناظم يفقد المعنى الذي يريد أن يؤكده للقارئ كونه وصف الرسول ﷺ بالبدر في البيت السابق، وبالتالي فإن قوله: (أبهى من البدر) ربما يكون قد أحدث غموضاً بعد ذلك حين قال: (أصفى من الشمس) وهذا جعل الأمر يتجه إلى كون آياته ومعجزاته ﷺ أصفى وأوضح وأنطق من الشمس، باعتبار الشمس آية من آيات الله الظاهرة والدالة على وجود الله عز وجل - لقوله سبحانه وتعالى - ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** ﴾[1].

ويقول الناظم: (أصفى من الشمس) يذكرنا بقول ابن نباته في مدحه ﷺ حينما عقد مقارنة بين الشمس والبدر وبين الرسول ﷺ - فقال:

وأين الشمس منه سناً ولولا

سناه لما ألم بها بهاء

كأن البدر صفرة خشوع

له والشمس ضرجها حياء[2]

---

(١) سورة فصلت آية (٣٧).

(٢) ديوان ابن نباته - حرف الهمزة - في قصيدته لمدح الرسول ﷺ ص٢ .

وأما قول الناظم: (وأمضى من السيف في حكم وفي حكم) ففيه تشبيه للرسول ﷺ بالسيف القاطع الحاد في حكمه وفي حكمته؛ لما يمتاز به ﷺ من رجاحة عقل وقوة شخصية وحسن خلق تمكنه من أن يكون أمضى من السيف في سرعة اتخاذه القرارات، وإصدار الأحكام الصحيحة في المواقف المختلفة، يعينه في ذلك حكمته وحسن بصيرته، وتقديره للأمور، ووضعها في نصابها، وليس أدل على ذلك من تحكيم قريش له في أعظم خلاف كاد يفض بها إلى الحرب، فعندما طغى السيل على الكعبة وكاد يهدم أركانها، وقررت قريش إعادة بنائها، وزعت أركانها على قبائلها، وشرعت في الهدم والبناء، ولما ارتفع جدار الكعبة، وبلغ موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيمن يتشرف بوضعه من الركن اليماني الشرقي، وتنافسوا في ذلك حتى كادوا يقتتلون، وأخيراً ألهمهم الله إلى تحكيم أول مَنْ يُقْبِلُ من باب الصفا، وما زالوا كذلك حتى أقبل سيدنا محمد ﷺ فتجلت حكمته، وبدا حكمه كقاضٍ يرضى به الجميع، فما إن رأوه ﷺ حتى قالوا: هذا محمد الأمين رضينا به حكماً، فأمرهم أن يبسطوا ثوباً فوضعه فيه، ثم أمر ممثلي قبائل قريش أن يأخذ ممثل كل قبيلة بطرف من الثوب، ولما حاذوا به مكانه من الجدار رفعه بيديه الشريفتين فوضعه في مكانه، وحقن بذلك الحكم وبتلك الحكمة دماء قريش[1]. وصدق الله العزيز الحكيم إذ قال في كتابه الكريم: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [2]. فأوتي سيدنا محمد ﷺ الحكمة من ربه فكان حكيماً، وتغنى بحكمته وبحسن قضائه وصائب حكمه الشعراء، فقال أحمد شوقي في همزيته النبوية:

---

(١) هذا الحبيب يا محب ص ٧٥.

(٢) سورة البقرة آية (٢٦٩).

وإذا قـــضـــيـــت فـلا ارتيـــاب كـــأنما

جـاء الخـــصـوم من الســـمـــاء قـــضـــاء[١]

وفي قول الناظم: (في حُكم وفي حكم) جناس تام يعطي جرساً موسيقياً داخلياً يزيد المعنى جمالاً ويقوي الفكرة، لينتقل منه إلى ذكر عدة صفات أخرى لرسول الله ﷺ حيث يقول:

٢٣- أغـر[٢] تشـرق[٣] من عـينيـه ملحـمـة[٤]

من الضـــيـــاء[٥] لتـجلو[٦] الظُلْمَ[٧] والظُلَم[٨]

وقول الناظم: (أغر تشرق من عينيه ملحمة) فيه استمرارية لاستخدام الناظم لمجموعة من الألفاظ والعبارات الموحية والمعبرة عن العطفة، التي استوحى بعضاً منها من القرآن الكريم، وبعضها الآخر من الحديث الشريف مثل قوله: (أغر) فقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله أغر أبلج أهدب الأشفار». و قوله: «تشرق من عينيه ملحمة» ربما عنى به

(١) الشوقيات ج١ ص ٣٦.

(٢) أغر: أي ذو غرة، والغرة بياض في الجبهة، والأغر الأبيض الوجه. وقيل: الأغر من الرجال الذي أخذت اللحية جميع وجهه إلا قليلاً كأنه غرة.

(٣) تشرق: تضيء، وأشرق وجهه: أسفر وأضاء وتلألأ حسناً.

(٤) ملحمة: الملحمة: الواقعة العظيمة القتل.

(٥) الضياء النور والإشراق.

(٦) تجلو: تكشف، ويقال: أجلى الله عنه المرض أي كشفه، وانجلى الغم: إذا ذهب وانكشف، وانجلى الظلام إذا انكشف، وانجلى عنه الهم: انكشف، وفي التنزيل ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ قال الفراء: إذا جلى الظلمة.

(٧) الظُلْم: وضع الشيء في غير موضعه، وفي المثل: من استرعى الذئب فقد ظلم، وأصل الظلم الجور ومجاوزة الحد، والظلم: الميل عن القصد، وفي التنزيل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قال ابن عباس وجماعة أهل التفسير: لم يخلطوا إيمانهم بشرك. وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

(٨) الظُلَم: جمع ظلمة، والظلمة: ذهاب النور،

معجزته ﷺ، التي منحها له رب العزة، وهي أنه ﷺ، نصر بالرعب والبرغم من عدم وجود قرينة تؤكد هذه الفكرة، فإننا لا نملك إلا أن نسير في هذا الاتجاه في التحليل؛ لأن ملحمة تعني القتل، والرعب باعتبار أنها تدل على الواقعة شديدة القتل، ولكننا نصطدم بقوله: (من الضياء) أي أن هذه الملحمة من ضياء يشرق ويضيء، فيكشف بسببه الظلم و الظلمات لقوله: (لتجلوا الظُّلَمَ والظُّلَم) فقد انكشف بنوره وضيائه ﷺ الظلم، بعد أن ساد و انتشر في ربوع البلاد، فجاء ﷺ، لينصف أهل الفقر من أهل الغنى بالزكاة والصدقات، وساوى بين الناس جميعهم، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وأرسى مبادئ المحبة والإخاء بين أفراد المسلمين عملاً بقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١) وقوله سبحانه و تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢).

ومن مظاهر رفع الظلم وانكشافه وقف وأد البنات، وإعطاء المرأة حقوقها في الحياة مثل: إبداء الرأي في الزواج، وحقها في الميراث، وحقها في طلب الطلاق... ومن مظاهر رفع الظلم أيضاً منع شرب الخمر، ومنع ممارسة القمار... ومظاهر رفع الظلم في حقيقة الأمر كثيرة جداً، لا يمكن حصرها في موقف أو موقفين، ولكن يكفي أنه ﷺ نشر العدل ورفع الظلم عن خلق الله أجمعهم لمن أراد أن يتبع الإسلام ديناً؛ لقوله ﷺ: فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»(٣).

---

(١) سورة الحجرات آية (١٠).

(٢) سورة الحجرات آية (١٣).

(٣) صحيح مسلم باب تحريم الظلم ج١٠ ص٨، الأحاديث القدسية ج١ ص٢٦٤.

وهناك الكثير من الآيات التي تدل على ضرورة العدل والمساواة ورفع الظلم، وأن الله لن يظلم الناس شيئاً، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾(١). وقوله عز وجل أيضاً: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾(٢).

وفي المقابل فقد أعد الله للذين ظلموا نار جهنم، سواء ظلم الإنسان نفسه أو ظلم غيره؛ لأن من أنواع الظلم أيضاً أن يظلم الإنسان نفسه لقوله عز وجل: ﴿ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴿٣٣﴾ **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾(٣). وقال عز وجل أيضاً: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾(٤). وأما العذاب الذي أعده الله عز وجل للظالمين فهو كثير متنوع منه قوله عز وجل: ﴿ **فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾(٥). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾(٦). وقوله عز وجل أيضاً: ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾(٧). وقوله عز وجل أيضاً: ﴿ **وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا** ﴾(٨).

---

(١) سورة الأنبياء آية (٤٧).
(٢) سورة النساء آية (٤٠).
(٣) سورة النحل آية (٣٣).
(٤) سورة يونس آية (٤٤).
(٥) سورة البقرة آية (٥٩).
(٦) سورة الأنعام آية (٤٥).
(٧) سورة الشعراء آية (٢٢٧).
(٨) سورة الكهف آية (٥٩).

وأما هذا العذاب المتعدد أنواعه وألوانه وأشكاله للظالمين، فتح الله باب رحمته وجنته لمن يرجع عن الظلم ويتوب عنه، وذلك لحث الظالمين على الإقلاع عن ظلمهم ولرفع الظلم بين الناس، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[١].

وإذا تأملنا في مسألة الظلم وجدنا أن الله - عز وجل - تخلى عن الظالمين، وأمرنا بعدم نصرتهم فقال - عز وجل -: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ[٢] وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٣]. وقال عز وجل أيضاً: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[٤].

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن الظلم وضرورة رد المظالم فقال ﷺ: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[٥]. وقال ﷺ، أيضاً: «إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته»[٦]. وقال ﷺ، أيضاً: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[٧]. وبهذه المبادئ الإنسانية حاول رسول الله ﷺ رفع الظلم ونشر العدل عملاً بما أمره به ربه رب العزة.

---

(١) سورة آل عمران آية (١٣٥ - ١٣٦).

(٢) حميم: قريب مشفق.

(٣) سورة غافر آية (١٨).

(٤) سورة الحج آية (١٧).

(٥) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٦) رواه البخاري ٢٦٧/٨.

(٧) رواه البخاري ٧٣/٥.

وقول الناظم: (والظُلَم) فلعله قصد به أنه ﷺ بعثه ربه - عز وجل - ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(١). وقوله عز وجل أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

أي أن الناظم اقتبس فكرة (الظُلَم والظُلَم) ليصوغها في بيت جميل من الشعر، وجعل بينها جناساً تاماً يعطي جرساً موسيقياً داخلياً مع حسن تقسيم، وهذا يجعله معيناً له في توضيح المعنى وتأكيد الفكرة التي يرمي إليها.

وفكرة انجلاء الظُلَم والظُلَم تناولها العديد من الشعراء، فمنهم ناصر الزهراني الذي قال في ميميته في مدح الرسول ﷺ:

فجئت يا منقذ الإنسان من خطر

كالبدر لمّا يجلي حالك الظلم(٣)

أما أحمد شوقي فقال في ميميته أيضاً واصفاً الوضع قبل بعثته ﷺ وانتشار الظلم في ربوع الدنيا ومصوراً حال الناس وبعض أنواع الظلم الذي كان منتشراً فيقول:

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم

إلا على صنم قد هام في صنم

(١) سورة الأحزاب آية (٤٣).

(٢) سورة الحديد آية (٩).

(٣) السراج المنير ص٩٩.

والأرض مملوءة جـــوراً، مـــســـخـرة
لكل طاغـــيـة في الخلـق مـــحـــتكـم
مـــسـيطر الفـــرس يبـــغي في رعـــيـــته
وقـــيـــصـــر الروم من كـــبـر أصم عـم
يعـــذبـــان عـــبـــاد الله في شـــبـــه
ويذبحـــان كـــمـــا ضـــحـــيت بالغنـم
والخلق يفـــتك أقـــواهم بأضـــعـــفـــهـم
كـــالليث بالبـــهم، أو كـــالحـــوت بالبلم[١]

ثم ينتقل الناظم بعد ذلك إلى وصف آخر للرسول ﷺ دون أن يمهد له بما قبله، ودون أن يربطه بما بعده، حيث يقول:

٢٤- فِي هِمَّةٍ[٢] عَصَفَتْ[٣] كَالدَهْرِ[٤] وَاتَّقَدَتْ[٥]
كَمْ مَـــزَّقَتْ[٦] مِنْ أَبِي جَـــهْـــلٍ وَمِنْ صَنَمِ[٧]

---

(١) الشوقيات ج١ ص١٩٧، ١٩٨.

(٢) همة: الهمة العزم القوي، وهي ما هم به من أمر ليفعله، وتقول: إنه لصغير الهمة وإنه لبعيد الهمة. والجمع همم.

(٣) عصفت: اشتد هبوبها. تقول عصفت الريح إذا اشتد هبوبها، وريح عاصف: شديد الهبوب.

(٤) كالدهر: الدهر مدة العالم من بدء ودوده إلى انقضائه، والدهر الزمان الطويل، والأمد الممدود، وقيل: الدهر ألف سنة، ودهر دهارير أي شديد.

(٥) اتقدت: اشتعلت وهاجت وتلألأت.

(٦) مزقت: شقت، ومزقه تمزيقاً: خرقه، مزقه: خرقه وقطعه، وفي حديث كتابه إلى كسرى لما مزقه دعا عليهم أن يمزقوا كل ممزق: أي يتفرقوا ويزول ملكهم ويقطع دابرهم.

(٧) صنم: الصنم تمثال من حجر أو خشب أو معدن كانوا يزعمون أن عبادته تقربهم إلى الله، وفي التنزيل ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ قال ابن عرفة: ما اتخذوه من آلهة فكان غير صورة فهو وثن، فإن كان له صورة فهو صنم، ومن العرب من جعل الوثن المنصوب صنماً.

وقول الناظم: (في همة) يوحي بالغموض ولا سيما بعد قوله: (عصفت) فالقارئ لا يدري ما هذا الشيء الذي مُزِّق وفُرِّق وقُطِّع بعزم وقوة؟ لقد مزِّق هذا الشيء المجهول وفرِّق وقطِّع وقضى على الكثير من أمثال أبي جهل، ومزَّق الأصنام وقضى عليها... كل هذا شيء حسن لكن يبقى السؤال من هو الذي فعل كل هذا بعزم وشدة وقوة ونشاط؟ هل يقصد به سيدنا محمداً ﷺ أم يقصد الملحمة التي خرجت من عينيه، وهي عبارة عن ضياء ونور قوي مزَّق وحطَّم وقضى على أمثال أبي جهل وكذا الأصنام؟

لقد لف الغموض البيت بالرغم من جمال تشبيهه الذي يحتوي على بعض اللبس أيضاً ولا سيما عندما يشبه هذا الشيء الغامض بالدهر الذي يعصف حيث يقول: (عصفت كالدهر)، فاستعار صفة العصف من الرياح ونسبها إلى الدهر ليبدو أن الدهر عاصف ومدمر كالريح التي اشتد هبوبها وهياجها، وكل ذلك حسن وطيب ومقبول، ولكن ما هو الشيء الذي سيكون عاصفاً كالدهر، وهكذا كما عودنا الناظم أن يضع القارئ في غموض وحيرة نتيجة لقوة عاطفته ومحبته لرسول الله ﷺ، فتتحول هذه العاطفة القوية الجياشة إلى مجموعة تعبيرات وصور بلاغية جميلة تفتقد في أحيان كثيرة الرابط الذي يربطها ببعضها؛ لتدفق هذه العاطفة دون أن يمنعها مانع فتنطلق على غير هدى.

وقول الناظم: (كالدهر) يذكرنا بما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف عن الدهر، فقد قال رب العزة: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾[١]. وقال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»[٢].

(١) سورة الجاثية، آية (٢٤).

(٢) رواه البخاري، باب: لا تسبوا الدهر، ج٨، ص٤١.

وقوله: (من أبي جهل) فقصد به أبا جهل كنموذج للكفرة العصاة الذين يصرون على كفرهم في كبر وعناد، وأن نهايتهم هي كنهاية أبي جهل، وأن التاريخ سيلعنهم كما لعنه، وأنهم لن يعصمهم من الله عاصم، ولن يكون لهم عون أو نصير أو ظهير.

وأبو جهل هو: عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، في صدر الإسلام، وهو أحد سادات قريش وأبطالها و دهاتها في الجاهلية، وقال صاحب عيون الأخبار: سودت قريش أبا جهل ولم يطرَّ شاربه، فأدخلته دار الندوة مع الكهول، أدرك الإسلام وكان يقال له: (أبو الحكم) فدعاه المسلمون (أبا جهل) وسأله الأخنس بن شريق الثقفي وكانا قد استمعا شيئاً من القرآن: ما رأيك يا أبا الحكم في ما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه..... والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه[1].

واستمر أبو جهل على عناده، يثير الناس على سيدنا محمد ﷺ وأصحابه، لا يفتر عن الكيد لهم والعمل على إيذائهم، حتى كانت وقعة بدر الكبرى فشهدها مع المشركين فكان من قتلاها.

ومما يروى في إيذاء أبي جهل لرسول الله ﷺ، أنه قال: «يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله، فإذا

(١) الأعلام ج٥ ص٨٧.

سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فلتصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم. فقالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد، فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركنين اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ يصلي وقد غدت قريش في أنديتهم فجلسوا فيها ينظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً ممتقعاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت عرض لي دونه فحل من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني، قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: ذاك جبرائيل، لو دنا لأخذه(١).

ويروى أيضاً أن أبا جهل لقي رسول الله ﷺ فقال له: والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا، أو لنسبن إلهك الذي تعبد، فأنزل الله تعالى فيه ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(٢). فكف رسول الله ﷺ عن سب آلهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله(٣).

ويروى أيضاً لما ذكر الله - عز وجل - شجرة الزقوم تخويفاً بها لهم، قال أبو جهل: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟

---

(١) مختصر سيرة الرسول ص١٥٨.

(٢) سورة الأنعام آية (١٠٨).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص١١.

قالوا: لا. قال: عجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمكنَّا منها لنتزقمنها[١] تزقماً. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾[٢]. أي إنها ليست كما يقول ويدعي أبو جهل[٣].

وأما قول الناظم: (ومن صنم). ففيه تذكير لما فعله الرسول ﷺ مع الأصنام، ومحاربته لها، وقضائه عليها، على الرغم من كثرتها وانتشارها، وتمسك أصحابها بها، إلا أنه ﷺ لم يدخر جهداً في سبيل القضاء على هذه العبادة.

ويقال: أول ما بدأ الشرك في العرب المستعربة، من ولد إسماعيل، حيث كانوا إذا خرجوا من الحرم لطلب الرزق أخذوا معهم حجارة من الحرم، فإذا نزلوا منزلاً وضعوها عندهم، وطافوا بها طوافهم بالبيت، ودعوا الله عندها، وإذا رحلوا أخذوها معهم... وبمرور الزمن نشأ جيل جاهل ينظر إلى تلك الأوثان من الحجارة على أنها آلهة يتقرب بها إلى الله تعالى رب البيت والحرم، فكان هذا مبدأ الوثنية في أولاد إسماعيل من العدنانيين.

أما الأصنام والتماثيل، فإن أول من أتى بها من الشام إلى الديار الحجازية فهو عمرو بن لحي الخزاعي، إذ سافر مرة من مكة إلى الشام فرأى أهل الشام يعبدون الأصنام، فسألهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: نعبدها نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأذهب به إلى بلاد العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له: هبل، وهو

---

(١) نتزقمنها: نبتلعها، وازدقم الشيء وتزقمه: ابتلعه، والتزقم: التلقم. وقال الجوهري: الزقوم: اسم طعام لهم فيه تمر وزبد، والزقم أكله، وقال ابن سيده: الزقوم طعام أهل النار. لسان العرب مادة (ز. ق. م) ج٦ ص٦٠، ٦١).

(٢) سورة الدخان، الآيات (٤٣: ٤٦).

(٣) السيرة النبوية، ج٢ ص١٦.

الذي نصبوه حول الكعبة، وبقي حولها إلى يوم الفتح الإسلامي، حيث حطم مع ثلاث مئة وستين صنماً، فطهر البيت الحرام وطهرت مكة والحرم منها.

وكان عمرو بن لحي الخزاعي محترماً في مكة، مقدساً عند أهلها، يُشرّع لهم فيقبلون شرعه، ويبتدع لهم فيحسنون بدعته، فكان أول من بدل دين إبراهيم وإسماعيل في الحجاز، ويشهد بذلك قول النبي ﷺ في حديثه الصحيح: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار... إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي... ».

وبمقتضى بدعة عمرو بن لحي في جلب الأصنام إلى الحجاز من الشام انتشرت الأصنام في بلاد العرب ومن هذه الأصنام:

١- سواع، برهاط بساحل ينبع تعبده قبيلة هذيل المضرية.

٢- ود، بدومة الجندل شمال المدينة قريباً من الشام تعبده كلب القضاعية.

٣- يغوث، بجرش يعبده أهل جرش، وهم بمخاليف اليمن جنوب مكة المكرمة.

٤- يعوق، بأرض همدان من أرض اليمن، تعبده قبيلة خيوان، وهم بطن من همدان.

٥- نسر، بأرض حمير من اليمن، وتعبده قبيلة ذو الكلاع من حمير.

٦- عميانس، بأرض خولان تعبده قبيلة خولان اليمانية، وهم الذين قسموا له أنعامهم ونزل فيهم قول الله عز وجل من سورة الأنعام ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ**

لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(١).

٧- سعد، بأرض ملكان بن كنانة المضرية، وتعبده قبيلة ملكان.

٨- ذو الخلصة، بتبالة جنوب مكة ببلاد اليمن، وكانت تعبده دوس وخثعم وبجيلة، وهذا الصنم بعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدمه عندما نصر الله دينه.

٩- إساف ونائلة، وهما صنمان كانا بالكعبة، ثم وضع على الصفا والمروة، كانت تعبدهما قريش من جملة أصنامها. ويروى أن أصلهما كان رجلاً وامرأة من جرههم فجرا داخل الكعبة فمسخهما الله تعالى، فالرجل يدعى إسافاً والمرأة تدعى نائلة، ولما جاء الإسلام تحرج أناس في السعي بين الصفا والمروة لمكان إساف ونائلة منهما، فرفع الله تعالى ذلك الحرج بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾(٢).

١٠- العُزَّى، وكانت بنخلة عن يمين الصاعد إلى العراق من مكة، وكان سدنتها وحجابها بنو شيبان من سليم حلفاء بني هاشم، وكانت تعبد وتقدس تقديس البيت الحرام، ويقال هدمها خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو يقول:

كفرانك عزى لا سبحانك

إني رأيت الله قد أهانك

(١) سورة الأنعام آية (١٣٦).

(٢) سورة البقرة آية (١٥٨).

١١- اللات، وكانت بالطائف، وكانت ثقيف تعبدها، ومنهم سدنتها وحجابها.

١٢- مناة، وكانت على ساحل البحر من ناحية المشلل قرب قديد، وتعبدها قبيلتا الأوس والخزرج، ومن دان بدينهم من أهل يثرب (المدينة) ولما جاء الإسلام وانتصر التوحيد على الشرك، يقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا سفيان أو علي بن أبي طالب فهدمها.

١٣- فلس، بجبلي طيئ، وهما سلمى وأجا من أرض طيئ شمال الحجاز، قريباً من حائل المدينة المعروفة اليوم، وكانت تعبده طيئ بأنواع من العبادات كالهدي إليه، والاستسقاء به، والائتمان بساحته... وبعث إليه الرسول ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فهدمه، وكان شبه إنسان لاصق بجبل أجا.

١٤- رئام، وهو بيت لحمير بصنعاء من اليمن يعظمونه وينحرون عنده، وتكلمهم الشياطين عنده لتفتنهم.

١٥- رضاء، وهو بيت أيضاً لبني ربيعة بن كعب بن زيد مناة بن تميم، ولما جاء الإسلام هدمها المستوغر بن ربيعة، ويقال: إنه عمَّر طويلاً فعاش ثلاث مئة وثلاثين سنة.

١٦- ذو الكعبات، وهو بيت لبكر وتغلب، ابني وائل وإياد، وكان بسنداد وهي منازل لإياد أسفل سوار الكوفة[1].

وأما أكثر ما كان يفعله العرب مع أصنامهم هو أن أحدهم إذا أراد السفر توجه إلى صنمه فتمسح به ثم سافر، وإذا عاد من سفره أول ما يبدأ به يتمسح بصنمه ثم يدخل على أهله، ويروى في ذلك قصة طريفة حيث أقبل أحدهم

١ - هذا الحبيب يا محب ص٣٥: ٣٩.

بإبل له ليقف بها على سعد (الصنم) رجاء بركته، فلما رأته الإبل وكان ملطخاً بدم القربان نفرت الإبل وشردت منه، فأخذ حجراً وهو غضبان وضرب به سعد (الصنم) وقال له: لا بارك الله فيك نفرت علي إبلي ثم أنشد:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا

فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة

من الأرض لا تدعو لغي ولا رشد[١]

وقد تغنى معظم الشعراء بتحطيم الرسول ﷺ للأصنام، والقضاء على عبادتها ومحاربة أربابها، فصوروا ذلك في شعرهم أبلغ تصوير، من ذلك مثلاً قول أحمد شوقي في ميميته (نهج البردة):

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم

إلا على صنم قد هام في صنم[٢]

و قول ناصر الزهراني في السراج:

أحيا بك الله أرواحاً قد اندثرت

في تربة الوهم بين الكأس والصنم[٣]

---

(١) المرجع السابق ص٣٧.

(٢) الشوقيات ج١ ص١٩٧.

(٣) السراج ص٩٦.

وقصة الأصنام ومحاربتها وتحطيمها والقضاء عليها ومصير أهلها وأربابها تناولها القرآن الكريم، واقتبس منه الشعراء والنقاد والأدباء وحاولوا نقل هذه الأفكار القرآنية إلى صور شعرية بيانية بلاغية بديعة، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١]. وقوله عز وجل أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[٢]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٣]. وقول رب العزة أيضاً: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[٤].

ونترك الأصنام وندعها جانباً. وننتقل إلى فكرة جديدة انتقل إليها الناظم حيث يقول:

---

(١) سورة الأعراف آية (١٣٨، ١٣٩).

(٢) سورة إبراهيم آية (٣٥).

(٣) سورة الأنعام آية (٧٤).

(٤) سورة الشعراء الآيات (٦٩: ٧٤).

٢٥- أَتَـى الْيَـتِـيمُ[١] أَبُو الأَيْتَـامِ فِي قَـدَرٍ
أَنْـهَى لأُمَّـتِـهِ مَـا كَـانَ مِـنْ يُـتْـمِ

وقول الناظم: (أتى اليتيم) ففيه وصف للرسول ﷺ باليتم، وهو تشريف له ﷺ، ولا يعد هذا الوصف فيه منقصة له أو مذمة، بل فيه دلالة على أن الذي أشرف على رعايته وترتيب شؤونه ﷺ هو رب العزة، وكثيراً ما فخر رسول الله ﷺ بهذا الأمر، فكان يقول: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، أي أن الذي أدبه ورباه هو ربه رب العزة، ولك أن تتخيل عزيزي القارئ حالة شخص أشرف على تربيته الله - عز وجل - إذن ستكون هذه التربية وسيكون خلقه عظيماً، ولا يمكن أن نجد أحداً رباه أبواه يقارن بتربية الله - عز وجل - لحبيبه محمد بن عبد الله ﷺ.

وأما قول الناظم: (أبو الأيتام) ففيه إشارة إلى الجهود التي بذلها رسول الله ﷺ من أجل رعاية الأيتام في حياته، ورعايته لهم ﷺ بعد مماته خلال الأحاديث الكثيرة التي حث فيها على كفالة اليتيم ورعايته، فاستحق لقب أبوالأيتام، ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما[٢].

واليتيم، وصى الله - عز وجل - نبيه محمداً ﷺ، به خيراً، وأمره ألا يزجره أو ينهره أو يقسو عليه، حيث قال رب العزة: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [٣] ونقل

---

(١) اليتيم: اليتم: الانفراد، واليتم فقدان الأب، وقال ابن السكيت: اليتم في الناس من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأم، ولا يقال لمن فقد الأم من الناس يتيماً ولكن منقطعاً، وقال ابن بري: اليتيم الذي يموت أبوه، والعجيُّ الذي تموت أمه، واللطيم الذي يموت أبواه، وقال ابن خالويه: ينبغي أن يكون اليتم في الطير من قبل الأم والأب؛ لأنهما كليهما يزفان فراخهما. لسان العرب مادة (ي.ت.م) ج١٥ ص٣٤٥.

(٢) رواه البخاري ٣٦٥/١٠.

(٣) سورة الضحى آية (٩).

هذه التوصية إلى المسلمين رسول الله ﷺ، فالأحاديث التي تحث على كفالة اليتيم وملاطفته ومداعبته والحنو عليه والقيام على شؤونه كثيرة جداً. ومنها قوله أيضاً: «اللهم إني أحرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة»[١].

وقد قرأ ابن مسعود قوله - عز وجل- ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾ قرأها (وأما اليتيم فلا تكهر) ويكهر: أي يعبس في وجهه[٢].

وقد تناول الشعراء وصف الرسول ﷺ باليتيم فصاغوه في شعرهم، وحاولوا بذل قصارى جهدهم لتوضيح فكرة اليتم وتصويرها بصورة بلاغية تنقل هذه الفكرة، ومنهم أحمد شوقي في همزيته:

نعم اليتيم بدت مخايل فضله

واليتم رزق بعضه وذكاء[٣]

وناصر الزهراني الذي قال في ميميته السراج المنير:

ولى أبوك عن الدنيا ولم تره

وأنت مرتهن لا زلت في الرحم

وماتت الأم لمَّا أن أنست بها

ولم تكن حين ولَّت بالغ الحلم

(١) رواه النسائي. رياض الصالحين ص١٢٤.

(٢) الكشاف ج٤ ص٧٥٧.

(٣) الشوقيات ج١ص٣٥.

ومـــــات جـــــدك من بعـد الولوع بـه

فكـنت مـن بعـــــدهـم فـي ذروة اليـــــتـم

فـــجـــاء عـــمك حـــصنـاً تســـتكـن بـه

فـــاخـــتـــاره الموت والأعـــداء في الأجـم

وقال أيضاً في ميميته:

ذكـــرت بـاليـــتم فـي القـــرآن تكـرمـة

وقـــيـــمـة اللؤلـؤ المكنون في اليـــتـم[1]

وأما قول الناظم: (أنهى لأمته ما كان من يتم) ففيه دلالة على إنهاء هذا اليتم في المجتمع الإسلامي عن طريق الدعائم الأساسية التي أرساها رسول الله ﷺ في هذا الأمر من خلال كفالة اليتيم، وما ورد من أحاديث في فضلها وأهميتها، بحيث يصبح كل مسلم وكل ومسلمة أباً وأماً لهذا اليتيم فيرعيانه ويكفلانه ويقوم على شؤونه.

ثم ينتقل الناظم بعد ذلك إلى سرد فضائل رسول الله ﷺ وجهده في سبيل بناء حضارة إسلامية عظيمة عوضاً عن تلك الحضارات الزائفة التي كانت موجودة في ذلك الوقت فيقول:

---

(١) السراج ص١٠٣، ١٠٤.

محمد ﷺ باني الحضارة الإسلامية

٢٦- مُحرِر العَقْل[١] بَانِي الْمَجْدَ[٢] بَاعِثُنا[٣]
مِنْ رَقْدَةٍ فِي دِثَارِ[٤] الشِّرْكِ[٥] واللَّمَمِ[٦]

وقوله: (محرر العقل) تشبيه استعاري حيث شبه العقل بشيء مقيد غير حُر، ثم جاء رسول الله ﷺ فأطلق له الحرية، وترك له العنان ليتفكر في ملكوت الله وخلقه، وليتأمل الكون وإبداعه، بعد أن كان هذا العقل مقيداً بمجموعة من العادات والتقاليد الجاهلية القديمة مثل: عبادة الأصنام، وأكل الميتة، وقطع الأرحام، وإساءة الجوار، وأكل القوي حق الضعيف، وإتيان الفواحش، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وخيانة الأمانة، والبغي بغير الحق، وأكل مال اليتيم، وقول الزور، والربا، وقذف المحصنات، ووأد البنات، والتطاير والتشاؤم، والاستقسام بالأزلام، والعصبية القبلية، والقتال لأتفه الأسباب، حيث كانت تستمر الحروب سنوات عديدة من أجل ناقة، مثل: حرب البسوس، أو من

---

(١) العقل: الحجر والنهي، والعاقل: هو الجامع لرأيه وأمره، والعاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، والعقل: القلب. وقيل: العقل هو التمييز الذي يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان.

(٢) المجد: المروءة والسخاء، والكرم والشرف. والمجد لا يكون إلا بالآباء، والحسب والكرم يكونان في الرجل وإن لم يكن له آباء لهم شرف.

(٣) باعثنا: محركنا وموقظنا، والبعث: إثارة بارك أو قاعد.

(٤) دثار: الثوب الذي يكون فوق الشعار ويستدفأ به.

(٥) الشرك: أن يجعل الإنسان لله شريكاً في ربوبيته.

(٦) اللمم: صغار الذنوب التي ليس عليها حد في الدنيا والآخرة.

أجل فرس، مثل: حرب داحس والغبراء، حيث استمرت كل منها أكثر من أربعين سنة، فجاء رسول الله ﷺ فحرر مثل هذا العقل من رقه وعبوديته واستسلامه لأفكار الجاهلية الأولى، والعادات التي نشأ عليها وأصبح غير قادر على التخلص منها، وقوله: (باني المجد)، فيه تشبيه للمجد ببناء يبنى ويرتفع، وفيه إشارة إلى القواعد والأسس الإسلامية التي جاء بها وأكد عليها رسول الله ﷺ من أجل رفعة المسلم، وعزته، وتفوقه، وفيها إشارة أيضاً للحضارة الإسلامية التي جاءت لتحل محل الحضارات الزائلة، ومكان العادات والتقاليد الجاهلية التي كانت تمثل حضارة العرب في الجاهلية.

وقد عبر أحمد شوقي عن مفردات هذه الحضارة الإسلامية التي أتى بها رسول الله ﷺ فقال في الهمزية النبوية:

فرسمت بعدك للعباد حكومة
لا سوقة فيها ولا أمراء[1]
الله فوق الخلق فيها وحده
والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة
والأمر شورى والحقوق قضاء
الاشتراكيون أنت إمامهم
لولا دعاوى القوم والغلواء

(١) الشوقيات ج١ ص٣٩.

الحـــــرب في حـــق لـديـــك شـــــــريعـــة

ومـــن الســـــــمـــوم الـنـاقـــــعـــات دواء

والـبـــر عـنـــدك ذمـــة وفـــــــــريـضـــة

لا مـنـــة مـــمـنـونـــة وحـــــــــبـــــــاء

جـــاءت فـوحـــدت الزكـــاة ســـبـــيـلـه

حـــــتى التـــــقـــى الكـرمـاء والبـــــخـلاء

أنصـــــفت أهل الفـــــقـــــر من أهـل الغنى

فـــــالكـل في حـق الحـــــيـــــاة ســـــواء

وهكذا رسم شوقي بصوره وتعبيراته مفردات هذا المجد الإسلامي الذي وضع لبناته وبناه سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.

وقـول الناظم: (باعـثنا من رقـدة في دثار الشـرك واللمم)، أي مـحـركنا وموقظنا من نومة دائمة وغفلة مستديمة، وسكون بالليل والنهار، وإعكاف على ارتكاب أكـبـر الذنوب وأصـغـرها والتي تبـدأ من الشـرك أعلى درجـات الآثام والذنوب إلى أقلهـا وهي اللمم، وذلك بعـد أن غطتنا هذه الذنوب ودثرتنا، وأصـبحت بمثابة الثوب الذي نلتحف به ليدفئنا. والبيت في مجـمله يمتاز بحسن التقسيم الذي يضفي عليه رونقاً موسيقياً داخلياً بالإضافة إلى براعة التـصـوير في قـوله: (دثار الشـرك واللمم)، والتي توحي بالتـغطيـة الشـاملة والالتـحـاف بالذنوب صـغـيـرها وكـبـيـرها، بالإضـافـة إلى التـضـاد في قـوله : (الشـرك واللمم) والذي يقـوي المعنى ويزيده وضـوحاً بالتضـاد، والجـمع بينهـما

يفيد الشمول والعموم لكل من عظيم الذنب وصغيره، بالإضافة أيضاً إلى التشبيه الاستعاري في قوله: (محرر العقل) و (باني المجد)، وكلها تبرز إمكانية الشاعر في التعبير والتصوير، والتي يستمر على نهجها فيقول:

٢٧- بِنُورِ هَدْيِكَ كَحَّلنَا[١] مَحَاجِرَنَا[٢]

لَمَّا كَتَبْنَا حُرُوفَاً صُغْتَهَا[٣] بِدَمِ

وقوله: (بنور هديك كحلنا محاجرنا) تشبيه مركب، حيث شبه تعاليم الإسلام ومبادئه وقواعده وأسسه بأنها نور يشفي من يكتحل بها، وشبه هذا النور بأنه كحل شافي لهذه العيون، فالهداية المحمدية شافية لكل من أراد أن يستشفي من أي قذى في عينيه. ثم يقول الناظم بعد ذلك: (لما كتبنا حروفاً صغتها بدم) وللنظرة الأولى إلى شطر هذا البيت نجد أنه لا علاقة له بشطره الأول، ولا توجد صلة قرابة تربط بينهما، ولا توجد أية مقدمة أو تمهيد من قبل الشطر الأول للبيت لأخيه الشطر الثاني، فبالرغم من وجود كلمة (لمَّا) التي توحي بالسببية فلا توجد هذه السببية على الإطلاق بين شطري البيت. وقوله: (كتبنا) فيها تفخيم وتعظيم لإضافة ناء الفاعلين إلى الفعل، فهو مكون كالآتي (كتب + نا)، وكلمة (صغتها) فيها ما يوحي بالدقة، فالصياغة تكون للمعادن النفيسة كالذهب والفضة... ولذا يطلق على من يصوغها لقب صائغ. والناظم يتخيل القصيدة أو الميمية شيئاً نفيساً يعاني في صياغته وحبكه

(١) كحلنا: كحل العين: أي وضع فيها ما يشتفى به، فهو كحلها وهي مكحولة.

(٢) محاجرنا: مفردها محجر، ومحجر العين ما دار بها وبدا من البرقع من جميع العين، وقيل: هو ما يظهر من نقاب المرأة وعمامة الرجل، وقيل: هو ما دار بالعين من العظم في أسفل الجفن.

(٣) صغتها: أي جعلتها جيدة محكمة، وكلام حسن الصياغة: جيد محكم. وصغتها: صنعتها في استقامة وإحكام متقنين.

ونظمه، وأكد هذه الفكرة قوله: (بدم) التي توحي بفرط المحبة لرسول الله ﷺ وصدق هذه المحبة لدرجة أن الميمية يصوغ أحرفها بدمائه وليس بمداده، ولا شك فيها ما يسميه النقاد بالتبليغ، أي المبالغة التي تكون جائزة أحياناً، وغير جائزة في معظم الأحيان، ويكون هدفها إيصال الفكرة بنوع من التصوير الذي يشتمل على المبالغة ليعطي للمستمع طرافة بيانية تفيد في إيصال العاطفة التي من خلالها يصدق القارئ أو المستمع صدق منطقية وفرضية القضية المطروحة. ويستمر الناظم في صياغة الحالة التي كان عليها الناس قبل بعثته ﷺ فيقول:

٢٨- مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إِلاَّ نُقْطَةٌ(١) غَرِقَتْ(٢)

فِي الْيَمِّ(٣) بَلْ دَمْعَةٌ(٤) خَرْسَاءَ(٥) فِي الْقِدَمِ(٦)

وقوله: (من نحن) أسلوب إنشائي جاء في صورة استفهام إنكاري، ويوحي بالتخبط والحيرة والضياع مع عدم إمكانية الحصول على إجابة مرضية، يرضى عنها السامع أو القارئ، حيث يجيب على التساؤل بقوله: (نقطة غرقت في اليم)، ولا شك أن استخدام الناظم لكلمة (نقطة) توحي بالتفاؤل، لقلتها

(١) نقطة: علامة مستديرة صغيرة جداً على سطح مستوٍ، والنقطة: علامة مستديرة صغيرة تجعل فوق الحرف المعجم أو تحته لتميزه، ويقال: وضع النقط على الحروف: أي بين الأمر ووضحه وأراد بها الناظم أقل القليل.

(٢) غرقت: الغرق: الرسوب في الماء. وفي التنزيل ﴿أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. والغرق في الأصل: دخول الماء في سمِّي الأنف حتى تمتلئ منافذه فيهلك. ويقال غرق في الماء: إذا غمره الماء فملأ منافذه حتى يموت.

(٣) اليم: البحر الذي لا يدرك قعره ولا شطاه، ويقال: اليم لجته، وزعم بعضهم أنها لغة سريانية فعربته العرب، وأصله يمّاً، ويقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحاً زعاقاً، وعلى النهر الكبير العذب الماء.

(٤) دمعة: الدمع ماء العين، والقطرة منه دمعة.

(٥) خرساء: الخرس ذهاب الكلام عيا أو خلقة. ودمعة خرساء: دمعة لا يسمع لها صوت إذا أريقت.

(٦) القدم: ضد الحداثة.

وعدم أهميتها، وأن هذه النقطة المهملة القيمة عندما تغرق في بحر عظيم لجي أكيد أنها سوف تكون كماً مهملاً لا يقدم ولا يؤخر ولا يؤثر. واستخدام الناظم أيضاً لكلمة نقطة التي توحي بالضآلة والقلة بعد استخدامه لكلمة (نحن) التي توحي بالكثرة فيه دلالة على أننا بالرغم من كثرتنا فإننا لا نمثل شيئاً؛ لأن هذه الكثرة إن هي إلا نقطة، والمفارقة بين (نحن ـ نقطة) تبرز الصور البلاغية وتزيد المعنى وضوحاً ولا سيما أن (نحن) معرفة، و (نقطة) نكرة، والتقاء التضاد بين النكرة والمعرفة يعمق الفكرة ويؤكدها ويقويها، وقول الناظم: (بل دمعة خرساء في القدم)، فيه استمرار أيضاً لتشبيه القلة فنحن بالرغم من كثرتنا (نقطة) بل (دمعة) وكلاهما نكرة، وكلاهما توحي بالضآلة والقلة، واستخدام الناظم لكلمة (بل) تفيد الاستدراك، أي يستدرك المتحدث في حديثه فينفي ما بعد بل ما قبله، كقولك: ما فلان شاعر بل خطيب، فنفيت عنه صفة الشاعرية وألصقت به صفة الخطابة، و(بل) تدخل على المفرد والجملة، ولها دلالات كثيرة بحسب موقعها في الجملة، ومن ذلك أنها تبطل المعنى الذي قبلها مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾[١].

والانتقال من معنى لآخر مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾[٢].

وقول الناظم: (دمعة خرساء) فيه تشبيه للعالم بأنه دمعة لا صوت لها. فهي دمعة خرساء غير معبرة، لا قيمة لها، ويمهد لهذه الدمعة بما يتبعها من آهات وحرقات وندم، ولكن هذه الآهات معبرة عن العاطفة بعكس الدمعة الخرساء فيقول:

---

(١) سورة الأنبياء آية (٢٦).

(٢) سورة الأنبياء آية (٥).

٢٩- أَكَادُ أَقْتَلِعُ[١] الآهَاتِ[٢] مِنْ حَرقِي[٣]

إِذَا ذَكَرْتُكَ[٤] أَوْ أَرْتَاعُ[٥] مِنْ نَدَمِي[٦]

وقول الناظم: (أكاد أقتلع الآهات من حرقي) تشبيه استعاري، حيث شبه الآهات بشيء يقتلع مسبباً مع اقتلاعه آلاماً شديدة، تهون كلها في سبيل محبة رسول الله ﷺ، لأن هذه الآهات تقتلع من شدة شوقه ومحبته لرسول الله ﷺ إذا ما ذكره. واستخدام الناظم للفعل (كاد) يدل على قرب حدوث الفعل؛ لأن الفعل (كاد) من أفعال المقاربة، فهو هم وكاد وقارب ولم يفعل، وتقول مثلاً: أكاد أشتري كذا، أو كدت أشتري كذا... فأنت هممت بالشراء ولم تفعل، ولذا فإن استخدام الفعل (كاد) أفسد الجو النفسي والعاطفي الذي يوحي بشدة المحبة، ولو أنه جعلها شرطية لكان أفضل؛ بحيث يصبح المعنى أنني عندما أذكرك أقتلع الآهات من حرقي، ومن لوعة الحب وشدة الشوق الذي يزيد مواجع القلب كلما تحل ذكراك أو ذكرك. وقول الناظم: (إذا ذكرتك)، تدل على أن هذا الذكر سيحدث في المستقبل؛ لأن إذا أداة للشرط والجزاء في المستقبل، وقول الناظم (أو أرتاع من ندمي)، فإن استخدامه لأداة العطف (أو) أفادت معنى التخيير، أي أنه عندما يذكر رسول الله ﷺ يكاد يقتلع الآهات أو يفزع من

(١) أقتلع: أنتزع، والقلع: انتزاع الشيء من أصله، قال سيبويه: قلعت الشيء: حولته من موضعه.

(٢) الآهات: واحدتها آهة. وآهة لقطة تقال للتوجع، وقال ابن المظفر: إذا توجع الحزين الكئيب قال: آهة عند التوجع، وأخرج نفسه بهذا الصوت ليتفرج عنه بعض ما به.

(٣) حرقي: الحرقة ما يجده الإنسان من لذعة الحب، وما يجده في القلب من وجع.

(٤) ذكرتك: استحضرتك في قلبي وحمدتك وأثنيت عليك، وذكر الشيء وتذكره واستذكره: استحضره في ذهنه.

(٥) أرتاع: أفزع، وارتاع منه وله وروعه فتروع أي تفزع، ورُعتُ فلاناً وروعته فارتاع أي أفزعته ففزع. لسان العرب مادة (ر.و.ع) ج٥ ص٣٧٢، القاموس المحيط ص٩٣٤، ٩٣٥.

(٦) ندمي: ندم على الشيء أسف، وتندم على الأمر: تحسر عليه أو على فعله إياه، والمندم والمندمة ما يحمل على الندامة. لسان العرب مادة (ن.د.م) ج١٤ ص٩٤، ٩٥.

ندمه على ما فرَّط وارتكب من آثام وذنوب، وما اقترف من معاص تجعله يأسف ويندم. ويمكن حمل شطر البيت على تأويل التشبيه إذا أراد الناظم تشبيه الأسف والندم بشيء مخيف مفزع مروّع، ثم ينتقل الناظم بعد ذلك إلى تصوير رائع بديع، حيث يتخيل أن النجم يحمله عندما يمدح رسول الله ﷺ فيقول:

٣٠- لَمَّا[١] مَدَحْتُكَ[٢] خِلْتُ النَّجْمَ[٣] يَحْمِلُنِي[٤]

وَخَاطِرِي[٥] بِالْسَنَا[٦] كَالْجَيْشِ مُحْتَدِمِ[٧]

وقول الناظم: (لما مدحتك خلت النجم يحملني) أي أن النجم يكاد يحملني ويرتفع بي ويرقى بي إلى أعالي السماء عندما أمدح رسول الله، واستخدام الناظم للفعل (خلت) يفيد الظن والتخيل ولا يرقى إلى مرتبة الحقيقة، فالمسألة كلها بلاغية بيانية ظنية تخيلية، تحمل في طياتها كناية عن السمو والارتفاع عندما يمتدح الرسول ﷺ، بالإضافة إلى التشبيه الاستعاري في قوله: (النجم يحملني) حيث شبه النجم بأنه شيء يحمله ويرقى به إلى عنان

---

١ - لما: أداة جزم مبنية، بمعنى حين.

٢ - مدحتك: أثنيت عليك، والمديح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء.

٣ - النجم: الثريا. لقوله تعالى حينما أقسم بالنجم ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ جاء في التفسير أنه الثريا، وكذلك سمتها العرب، وكل ما طلع وظهر فقد نجم، وقيل: النجم أحد الأجرام السماوية المضيئة بذاتها، ومواضعها النسبية في السماء ثابتة. ومنها الشمس.

٤ - يحملني: يرفعني، وحمل الحمل رفعه، والحمل: ما حمل وجمعها أحمال، والحمل: ما حمل على ظهر أو رأس، وهذا هو المعروف في اللغة.

٥ - خاطري: الخاطر ما يخطر بالقلب من أمر أو رأي أو معنى، والخاطر: النفس أو القلب. والجمع خواطر. والخاطر الهاجس أيضاً وهو ما لا يقصده الناظم. وربما قصد بها الناظم في بيته هذا النفس أو القلب.

٦ - بالسنا: ضوء النار والبرق، وسنت النار تسنو سناءً علا ضوؤها، وأسنى النار: رفع سناها. وفي الحديث «بشر أمتي بالسناء» أي بارتفاع المنزلة والقدر عند الله، وسنى يسني سناءً ارتفع.

٧ - محتدم: مشتد غليانه.

السماء، وهذا التخيل يبرز العاطفة الجياشة والمحبة الخالصة لرسول الله ﷺ . وأما قوله: (وخاطري بالسنا كالجيش محتدم)، ففيه تشبيه لما يدور في عقله وقلبه بنيران يزداد لهيبها ويرتفع سناها وضوؤها كما الجيش الذي يغلي ويضطرب، والناظم بالرغم من بلاغة التشبيه الذي يشتمل على تشبيه استعاري في قوله: (خاطري بالسنا)، وتشبيه صريح في قوله: (كالجيش محتدم)، إلا أن كلا التشبيهين لا يربط بينهما رابط فكري سوى الغليان والاضطراب في السنا وفي الجيش، وربما يرى البعض أن تشبيه (الجيش محتدم) فيه توفيق من الناظم؛ لأنه يناسب المشاعر والأحاسيس المضطربة والمندفعة والمتدفقة في محبة رسول الله، ثم ينتقل الناظم إلى فكرة أخرى توافق سابقتها في كثير من المعنى وتكمله حيث يقول:

٣١- شَجَّعْتُ[١] قَلْبِي أَنْ يَشْدُو[٢] بِقَافِيَةٍ[٣]

فِيكَ القَرِيْضُ[٤] كَوَجْهِ الْصُبْحِ مُبْتَسِمِ

وقول الناظم: (شجعت قلبي)، أي قويته على هذا الأمر وأعنته عليه ليقوم به على أكمل وجه؛ وهذا التشجيع لكي (يشدو بقافية)، وفيه تشبيه استعاري

(١) شجعت: قويت، وشجعت قلبي: قويته على الأمر وجعلته شجاعاً، وشجعته على الأمر قويته وشددت أزره ليقوى عليه.

(٢) يشدو: الشدو الغناء، وشدا بصوته شدواً: مده بغناء ونحوه، الشدو: إنشاد بيت أو بيتين من الشعر تمد بها صوتك بالغناء. ويقال: وقد شدا شعراً إذا غنى أو ترنم به.

(٣) قافية: قال الخليل: القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه مع الحركة التي قبل الساكن، ويقال مع القاف إلى آخر البيت. ويقال مع المتحرك الذي قبل الساكن. كأن القافية على قوله من قول لبيد: غفت الديار محلها فمقامها .....من فتحة القاف إلى آخر البيت وعلى الحكاية الثانية من القاف نفسها إلى آخر البيت، وقال قطرب: القافية الحرف الذي تتبني عليه القصيدة، وهو المسمى روياً. وقال ابن كيسان: القافية كل شيء لزمن إعادته في آخر البيت.

(٤) القريض: الشعر. يقال: قرضت الشعر أقرضه إذا قلته، والشعر قريض.

حيث شبه قلبه بإنسان يغني ويترنم وينشد القوافي في حب رسول الله ﷺ. وقول الناظم: (فيك القريض كوجه الصبح مبتسم)، تشبيه بالقريض الذي يقال في الثناء والمدح لرسول الله ﷺ، بأنه مبتسم كما الصبح إذا لاح ضوؤه وانتشر. والتشبيه يوحي بغموض الفكرة رغم طرافتها؛ لأن الناظم كان يمكن أن يصور القريض الذي يقال في رسول الله ﷺ، بأي شيء آخر أقرب في الفكرة ومعبر عن المعنى من الصبح المبتسم، أضف إلى ذلك أن البيت فيه إقواء، وهو عيب من عيوب القافية، فالقافية مكسورة الروي بينما هنا في هذا البيت مرفوعة، ثم ينتقل الناظم إلى ذكر الحضارات الأخرى وروادها ومقارنتها بالحضارة الإسلامية وبما جاء به رسول الله ﷺ، من قيم وأخلاق وتعاليم تحث على الفضيلة وترفض الرذيلة، وتقدم للبشرية ما ينفعها وما يسمو بها عن الحضارات المادية المحضة فيقول:

٣٢- صَهْ[١] شِكسْبِيْر مِنَ الْتَهْرِيجِ[٢] أَسْعَدَنَا[٣]

عَنْ كُلِّ إِلْيَاذَةٍ مَا جَاءَ فِي الْحِكَمِ

وقول الناظم: (صه) فيها زجر وأمر بالسكوت والتوقف عن مسيرة العمل الذي يقوم به، أو الكلام الذي يلقيه، وتعني السكوت التام. وأما قوله: (شكسبير)، فقد عنى به وليم شكسبير، أشهر الشعراء المسرحيين الذين عرفهم العالم.

---

(١) صه: كلمة زجر للسكوت، مبنية على السكون، وهو اسم سمي به الفعل، ومعناه اسكت، تقول للرجل إذا سكتته وأسكته صه، فإن وصلت نونت قلت: صه صهٌ، أما قولهم: صه إذا نونت فكأنك قلت سكوتاً.

(٢) التهريج: ربما قصد بها الهرج أي قول الباطل والكذب والإشاعات المزيفة، وهرج القوم في الحديث إذا أفضوا به فأكثروا، والهرج: كثرة الكذب.

(٣) أسعدنا: أي أدخل على قلبنا البهجة والفرحة والسرور. والسعادة نقيض الشقاء والشقاوة، ويقال: سعيد وشقي.

وأما قوله: (من التهريج أسعدنا) ففيها إيحاء بأن ما كان يسعدنا ويسبب لنا الفرح والسعادة والسرور ما هو إلا أكاذيب مضللة، وخرافات كثيرة نعتقد فيها الحكم والموعظة، ودلل على ذلك قوله: (التهريج). وبالرغم من أن هذه الكلمة غريبة على العربية قريبة إلى العامية فإنها بالرغم من هذه الغرابة حاول الناظم أن يوظف معناها وينقله من العامية إلى العربية؛ لأن قاموس العربية لا يعرف كلمة (تهريج) وإنما هرج يهرج.... وتقريباً أدت الكلمة المعنى الذي يرمي إليه الناظم ويصبو إليه. وأما قوله: (عن كل إلياذة)، فقد قصد بها الناظم ملحمة الشاعر هومر، وهو شاعر يوناني عرف باسم (هوميروس)، وتدور أحداث (الإلياذة والأوديسة) حول حرب طروادة وما تلاها، وقد دارت رحاها بين اليونان ومدينة طروادة، ربما في منتصف القرن الثالث عشر ق.م، ويعتقد كثير من العلماء أن القصائد قد تم وضعها ما بين عامي ٨٠٠ و ٧٠٠ ق.م، ويعتمدون في ذلك على ما أشارت إليه الملحمة من أحداث كانت موجودة في ذلك الوقت. وأكدت المصادر المختلفة أن الإلياذة والأوديسة لم يكونا من تأليف (هومر)، بل هي حكايات شعبية جمعها (هومر)، وغناها فعلقت بأذهان الناس ونسبت إليه. وقد اكتشف علماء الآثار في حطام طروادة باليونان القديمة دليلاً يؤكد الأساس التاريخي لبعض الأمور التي جرى وصفها في القصائد. إلا أن الشخصيات والأحداث وإن قامت في بعضها على أساس حقيقي ووقائع تاريخية إلا أنها قد تغيرت عبر القرون خلال عملية التناقل القصصي الشعبي. وبعد انتهاء عصر (هومر)، كانت القصيدتان تنشدان في الاحتفالات الدينية الوثنية في اليونان، وأصبحت نسخ القصيدتين نصوصاً مدرسية يعتمد عليها الأطفال اليونانيون في دراسة الأساطير اليونانية القديمة، وترتب على ذلك أن شكّل اليونان آراءهم الدينية من الأوصاف التي عرضها (هومر)، للآلهة. كذلك

فإن قصائده كانت زاداً حافلاً بالشخصيات والحبكة والعقدة المسرحية لكتاب المسرح في القرن الرابع ق. م [١].

ثم يستعرض الناظم بعد ذلك حضارة الفرس والروم واليونان مقارناً إياها بحضارة سيدنا محمد ﷺ فيقول:

٣٣- الْفُرْسُ وَالْرُوم وَالْيُونَان إِنْ ذَكَرُوا[٢]

فَعِنْدَ ذِكْرَاهُ[٣] أَسْمَالٌ[٤] عَلَى قَزَمِ[٥]

وقول الناظم: (الفرس) فقد عنى بها بلاد فارس وحضارتهم وقصورهم وأمجادهم وتفوقهم المادي على العرب في ذلك الوقت. وفارس: ولاية واسعة أول حدودها من جهة العراق أرجان، ومن جهة كرمان السيرجان، ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف. قال أبو علي: فارس اسم البلد وليس اسم الرجل، وأصله ليس عربياً، بل هو فارسي معرب، ومدينة فارس طولها ثلاث وستون درجة، وعرضها أربع وثلاثون درجة. وهي من أمهات المدن المشهورة، وسميت بفارس نسبة إلى فارس بن علم بن سام بن نوح عليه السلام، وقيل: سميت باسم فارس بن مدين بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: سميت باسم فارس بن طهموث وإليه ينسب الفرس؛ لأنهم من ولده وكان ملكاً عادلاً، قريب العهد من الطوفان، ويقال في العربية: رجل فارس: أي بين الفروسية والفراسة، من ركوب الفرس، وفارس من الفراسة إذا كان جيد النظر والحدس، والعجم لا يقولون

---

(١) الموسوعة العربية العالمية ج٢٦ ص٢٧٤.

(٢) ذكروا: جروا على الألسنة بعد النسيان.

(٣) ذكراه: استحضاره في الذهن والقلب بعد نسيان.

(٤) أسمال: قال أبو عبيد الأسمال الأخلاق. والسمل خلق بال. وسمل الثوب أخلق وأصبح بالياً.

(٥) قزم: اللئيم الدنيء الرديء الصغير الجثة الذي لا خير فيه.

لهذا البلد إلا بارس بالباء، وقال ابن لهيعة: فارس والروم قريش العجم، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أبعد الناس إلى الإسلام الروم، ولو كان الإسلام معلقاً بالثريا لتناولته فارس». وكانت أرض فارس قديماً قبل الإسلام ما بين نهر بلغ أو (بلخ) إلى منقطع أذربيجان، وأمنية الفارسية إلى الفرات إلى برية العرب إلى عمان، وبدأ فتح فارس في عهد عمر، وتم فتحها كلها في عهد عثمان بن عفان، وقد مدحها الكثير من الشعراء، فقالوا من ضمن ما قالوا في مدحها:

في بلدة لم تصل عبكل بها طنباً

ولا خباء ولا عك وهمدان

ولا لجرم ولا الأتلاد من يمن

لكنها لبني الأحرار أوطان

أرض يبني بها كسرى مساكنه

فما بها من بني اللخناء إنسان

وبنواحي فارس من أحياء الأكراد ما يزيد عن خمس مئة ألف شاعر، ينتعجون المراعي في الشتاء والصيف على مذاهب العرب، وبفارس كثير من الأنهار والقلاع، فقد بلغ ما بها من قلاع خمسة آلاف قلعة[١].

وأما قول الناظم: (والروم) فهو جبل معروف في بلاد واسعة تضاف إليهم، فيقال: بلاد الروم، واختلفوا في أصل نسبهم، فقال قوم: ينتمون إلى عيصو بن إسحاق النبي عليه السلام[٢]، وقال قوم: إنهم من ولد روم بن سماحيق بن

(١) معجم البلدان ج٤ ص٢٢٦: ٢٢٨.

(١) لسان العرب مادة (ر. و. م) ج٥ ص٣٧٨.

هيرنان بن علقان بن إسحاق بن إبراهيم، وقال آخرون: إنهم من ولد روميل بن الأصفر. وقال عدي بن زيد العبادي فيهم:

وبنو الأصفر الكرام ملوك

روم لم يبق منهم مذكور

وقال الكلبي: إنما سميت الروم لأنهم كانوا سبعة راموا فتح دمشق ففتحوها، فقتلوا أهلها، ثم تقدموا حتى انتهوا إلى أنطاكية، وهم الروس وجنوبها الشام والإسكندرية، ومغاربها البحر والأندلس[١].

وأما قول الناظم: (واليونان) فهي دولة صغيرة تقع جنوب أوربا، حيث نشأت الحضارة الغربية قبل ٢٥٠٠ سنة، في الوقت الذي سيطر فيه الإغريق على معظم المناطق المحيطة بالبحرين الأبيض المتوسط والأسود.

وتعد أثينا العاصمة أكبر مدن اليونان، وتوجد باليونان آثار الحضارة الإغريقية القديمة، ويعيش ما يقرب من ربع سكان اليونانٍ على الزراعة التي تعد من أهم الأنشطة الاقتصادية، ولكن معظم أراضي اليونان جبلية وعرة، مع وجود مساحات صغيرة من التربة الخصبة.

واشتهر اليونانيون بأنهم شعب بحري؛ فلا يوجد مكان في اليونان يبعد عن البحر أكثر من ١٣٧كم، وتكوِّن الجزر خمس مساحة اليونان.

وقد وقع اليونان تحت سيطرة الغزاة أكثر من ٢٠٠٠ سنة، فقدوا خلالها استقلالهم على يد المقدونيين عام ٣٣٨م، ولم يستعيدوه إلا عام ١٨٢٩ من العثمانيين، ومنذ ذلك الوقت والحكومة اليونانية تواجه مشكلات سياسية كبيرة بسبب ضعفها[٢].

(١) معجم البلدان ج٣ ص٩٧: ١٠٠.

(١) الموسوعة العربية العالمية ج٢٧ ص٣٨١.

وقد جمع الشاعر بين الحضارات الثلاث القديمة وهي: فارس والروم واليونان؛ ليدلل على شيء واحد، وهو أن الحضارات القديمة مهما تعددت أو تنوعت أو اختلفت أو أحرزت تقدماً فهي حضارات مادية محضة، تبتعد عن حضارة الروح الإنسانية، ولا تسد رمق الإنسانية، ولا تلبي احتياجاتها الدينية أو العقائدية أو الروحانية كما فعل الإسلام، ولذا فقد شبهها بأنها (أسمال على قزم)، أي ملابس خرقة بالية على إنسان دنيء لئيم وضيع ضئيل الجسم إذا ما ذكرت حضارة سيدنا محمد ﷺ فهي لا تدانيها ولا تجاريها، فهي بالنسبة لهذه الحضارة الإسلامية قزم يرتدي ملابس قديمة رثة بالية، وقد استمر الناظم في تصوير هذه الحضارات وما قدمته للإنسانية وما قدمه سيدنا محمد ﷺ فيقول:

٣٤- هُمْ نَمَّقُوا[١] لَوْحَةً[٢] للرقِ[٣] هَائِمَةً[٤]

وَأَنْتَ لَوْحُكَ مَحْفُوظٌ[٥] مِنَ التُهَمِ[٦]

وقول الناظم: (هم) ضمير غائب يدل على التكير والتقليل من شأن أصحاب هذه الحضارات، وقوله: (نمقوا) توحي بالتزيين والزخرف الخارجي لهذه الحضارات، فهي حضارات مادية شكلية تهتم بالشكل ولا تلتفت إلى المضمون أو الجوهر؛ لأن الشكل الخارجي يمكن تزيينه، ولكن الجوهر لا يمكن

---

(١) نمقوا: حسنوا وجودوا وزينوا، وقال الأصمعي: يقال للشيء المروح: فيه نمسة ونمقه وزهمقة.... ربما قصد بالمروح الذي يدخل الراحة والسرور على العين والنفس والقلب.

(٢) لوحة: كل صفيحة عريضة من صفائح الخشب، وقال الأزهري: اللوح صفيحة من صفائح الخشب، والكشف إذا كتب عليها سميت لوحاً. واللوح الذي يكتب فيه. واللوح: ما يكتب فيه من خشب ونحوه. واللوحة: هي لوح من الورق الغليظ ونحوه يصور فيه منظر طبيعي أو مشهد تاريخي أو غير ذلك.

(٣) للرق: العبودية.

(٤) هائمة: متحيرة متخبطة لا تلوي على شيء.

(٥) محفوظ: مصان محروس. وحفظ الشيء: صانه وحرسه.

(٦) التهم: الاتهام، واتهم فلان: أدخل عليه التهمة، أي الشك والظن في قوله وفعله، فلم يصدقه.

تزيين حقيقته، فهو يبدو دائماً على حقيقته دون تزييف أو تزوير لهذه الحقيقة بالتنميق، بينما الحضارة الإسلامية التي جاء بها الإسلام محفوظة بعون الله وقدرته من أي اتهام يمكن أن يوجه إليها، فهي تهتم بالإنسان كقيمة مادية ونفسية وروحية... وبالتالي فهذه الحضارة المتكاملة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ تكون كما قال الناظم: (محفوظ من التهم).. وإن أراد الناظم مقارنة لوحهم ولوح الرسول ﷺ، أي عقد مقارنة بين القرآن وبين لوحهم الذي زوروا فيه حضارتهم وكتبوا فيه مفردات هذه الحضارة فجائز أيضاً أن يكون لوحه (محفوظاً من التهم). وقوله: (لوحك محفوظ) فيها اقتباس من قوله عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[1]. وقد تناول كثير من الشعراء هذه الحضارات فوصفوها، وذكروا مفرداتها، وما اشتملت عليه، وقيمة الإنسان بالنسبة لها، فقال أمير الشعراء أحمد شوقي في ميميته:

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هام في صنم
والأرض مملوءة جواراً، مسخرة
لكل طاغية في الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغي في رعيته
وقيصر الروم من كبر أصم عم

١ - سورة البروج آية (٢٢).

يعـــذبـان عـــبـاد الله فـي شـــبـه

ويذبحـــان كـــمـــا ضـــحـــيـت بالغنـم

والخلق يفـــتك أقـــواهـم بأضـــعـــفـــهـم

كـــالليث بالبـــهم أو كـــالحـــوت بالبلـم[١]

وقال أيضاً عن روما وأثينا وكسرى:

دع عـنـك رومـــــا وأثـيـنـا ومـا حـــــوتـا

كل اليـــواقـــيـت في بغـداد والتـــوم

وخـل كـــســـــرى وإيـوانـاً يـدل بـه

هـوى عـلـى أثـــر الـنـيـــــران والأيـــم[٢]

ثم انتقل شوقي إلى المقارنة بين ما جاء به سيدنا محمد ﷺ من علم وحضارة وبين تلك الحضارات الزائفة الزائلة فقال:

لما اعـــتـلت دولة الإســـلام واتســـعـت

مـــشت ممالكه فـي نـورهـا التـــمـم

وعـلـمـت أمـــة بـالـقـــــفـر نـازلـة

رعي القـــيـــاصـــر بعـد الشـاء والنعم

(١) الشوقيات ج١ ص١٩٧، ١٩٨.

(٢) الشوقيات ج١ ص٢٠٥.

كم شـــيـــد المصلحـون العـــاملون بهـا

في الشـــرق والغـــرب ملكـاً باذخ العظم

للعلم والعـــدل والتـــمـــديـن مـــا عـــزمـوا

من الأمـــور ومـــا شـــدوا مـن الـحـــزم

ســـرعـان مـــا فـــتـــحـوا الدنيـــا لملتـــهـم

وأنهلوا الـناس من سلســـالـهـا الشـــبـم

ســـاروا عليـــهـــا هداة الناس فـــهي بهـم

إلى الـفـــــلاح طـريـق واضـح الـعـظـم[1]

ثم ينتقل الناظم إلى الحديث عن بعض ما تميز به سيدنا محمد ﷺ دون غيره من الأنبياء، و ما فضله به ربه وما فضل به أمته فيقول:

(١) الشوقيات ج١ ص٢٠٤.

معجزاته وبشائر مولده ﷺ

٣٥- أَهْدَيْتَنَا[١] مِنْبَرَ الدُّنْيَا وَغَارَ حِرَا

وَلَيْلَةَ الْقَدْرِ وَالإِسْرَاءِ لِلْقِمَمِ[٢]

وقوله: (أهديتنا منبر الدنيا) أي قدمت لنا الرفعة والعلو في الدنيا، كون المنبر مرقاة الخاطب؛ وسمي منبراً لارتفاعه وعلوه، وإن أراد الناظم (منبر الدنيا) أي المنبر الذي يرقى إليه الخاطب فجائز، كون أمة الإسلام ميزت عن غيرها بالمنبر ولاسيما في عاداتها و عقائدها الدينية، فلا توجد أمة لها منبر غيرها.

وقد اعتبر الناظم المنبر هدية أهدت إلى المسلمين، وفي هذا تشبيه استعاري للمنبر بشيء يقدم للألطاف والمجاملة.

وأما قوله: (وغار حرا) ففيه تذكير بقوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٣].

---

(١) أهديتنا: قدمته لنا على سبيل المجاملة بين الأحبة. فالهدية هي كل ما يقدم من التحف والألطاف بين الأحبة للمجاملة.

(٢) للقمم: للعلو والسمو والرقي والارتفاع، فقمة كل شيء أعلاه.

(٣) سورة العلق الآيات (١: ٥).

أي فيه تذكير ببدء نزول الوحي، وفيه تذكير بالشرارة الأولى للدعوة المحمدية، وفيه تذكير بالمدة التمهيدية للدعوة الإسلامية حيث كان يتعبد الرسول ﷺ: في هذا الغار، يتفكر ويتأمل وينظر فيمن خلق السموات والأرض.

وهذا الغار كان من عادة العرب قديماً أن ينقطع مفكروهم للعبادة زمناً في كل عام يقضونه بعيداً عن الناس، في خلوة يتقربون من خلالها إلى آلهتهم بالزهد والدعاء، وكانوا يسمون هذا الانقطاع للعبادة بالتحنف والتحنث.

وقد وجد سيدنا محمد ﷺ، في ذلك خير ما يمكنه من الإمعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل، كما وجد فيه طمأنينة نفسه، وشفاء شغفه بالوحدة.

وكان بأعلى جبل حراء - على بعد فرسخين من شمال مكة - غار، هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث، فكان يذهب إليه سيدنا محمد طوال شهر رمضان من كل سنة، يقيم به مكتفياً بالقليل من الزاد، ممعناً في التأمل والعبادة، بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة، ملتمساً الحق وحده، وكان يشتد به التأمل حتى إنه ينسى طعامه، وينسى نفسه، وكل ما في الحياة. فقد كان يفكر ﷺ، فيما يعبد قومه من آلهة لا تنفع ولا تضر ولا تغني شيئاً، وكان يعود من غار حراء بعد انتهاء شهر رمضان وقد امتلأت نفسه وروحه بفكرة واحدة، وهي لا بد أن يكون لهذا الكون رباً يستحق أن يعبد.

وقد اختلف العلماء فيما إذا كان سيدنا محمد ﷺ، يتعبد في أثناء تحنثه على شرع بذاته، وروى ابن كثير طرفاً من آرائهم في الشرع الذي كان يتعبد عليه، فقال بعضهم: شرع نوح، وقال البعض: شرع موسى، وقال آخرون: شرع عيسى، وقيل: كل ما سبق هو الذي شغف به سيدنا محمد ﷺ. من التأمل والتفكير[1].

(١) حياة محمد ص٨٣-٨٤.

وقد ذكر الناظم غار حراء وتعبد الرسول ﷺ فيه، وقيمته بالنسبة له وللمسلمين في أكثر من قصيدة، حيث يقول في قصيدته (الوحي مدرستي الكبرى):

والوحي مدرستي الكبرى وغار حرا
ميلاد فجري وتوحيدي وإيماني[١]

ويقول أيضاً في قصيدته (تاريخنا أنت):

نعم أنا الغار في أرجائه ولدت
عقيدتي وشبابي فيه مكتمل
فيه اليتيم أبو الأيتام مرتجف
والوحي يهتف والأملاك تبتهل
اقرأ ولو كنت أمياً فمحبرة
في راحتيك مداد النور ينهمل

إلى أن يقول فيها:

هجرت في الغار كأس النوم فاغتسلت
بك الدياجي وقام الليل يرتحل[٢]

(١) تاج المدائح ص٦٧.
(٢) تاج المدائح ص٥٨.

والناظم لم يشر فقط إلى غار حراء في قصائده الكثيرة في مدح الرسول ﷺ وإنما أشار أيضاً إلى غار ثور، حيث يقول في قصيدته (نور من الغار):

فـدولة الكفـر حـول الغـار قـد هزمـت

بمعـول الفـتح ثان اثنين فـي الغـار[1].

وقد تحدث الكثير من الشعراء عن الغار في قصائدهم ومدحهم لرسول الله ﷺ سواء كان غار حراء أم غار ثور، ومن هؤلاء أحمد شوقي حيث يقول في ميميته نهج البردة عن غار حراء:

سـائل حـراء وروح القـدس هل علمـا

مـصـون سـر عـن الإدراك منكتـم

كم جـيـئة وذهـاب شُـرِّفَتْ بهـمـا

بطحـاء مكة في الإصـبـاح والغـسـم

ووحـشـة لابن عـبـد الله بينهـمـا

أشـهى من الأنس بالأحـبـاب والحـشـم

يسـامـر الوحي فـيـهـا قـبل مـهـبطه

ومن يبـشـر بسـيـمى الخـيـر يتـسـم

إلى أن يقول:

---

(١) المرجع السابق ص٩٩.

ونـودي: اقـــرأ تعـــالـى الله قـــائلـهـا

لـم تتـــصـل قـــبـل من قـــيـلـت له بفم[١]

ويقول في القصيدة نفسها عن غار ثور:

سل عـــصـــبـة أشـــر ح الغـار ســـائمـة

لـــولا مـطـــاردة المخـــــــتـــار لـم تســـم

هل أبصـــروا الأثر الوضـــاء أم ســـمـــعـوا

همس التـــســـابيح والـقـــرآن مـن أمـم

وهـل تمـثـل نـسـج الـعـنـكـبـــوت لـهـم

كـــالغـــاب والحـــائمـــات الزغب كـــالرخم[٢]

أما الدكتور/ عبدالرحمن صالح العشماوي فقال أيضاً في الغار:

أســـمـعت شـــيـئـــاً يا حـــراء عن الفـتى

أقـــرأت عـنـه دفـــاتـــر الأخـــبـــار

طب يـا حـــراء فـــأنت أول بـقـــعـــة

في الأرضِ ســـوف تـفـــيـض بـالأســـرار

(١) الشوقيات ج١ ص١٩٥، ١٩٦.

(٢) الشوقيات ج١ ص١٩٩.

طب يا حـــراء فـــأنت شـــاطئ مـــركبٍ

مـــــا زال يـرسـم لـوحـــة الأبـحـــــار[١]

وأما إذا انتقلنا لقول الناظم: (وليلة القدر) فهي تمثل فعلاً هدية من رب العزة للمسلمين، فهي خير من ألف شهر، فقد قال في وصفها سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[٢]، وذكر في تخصيص هذه المدة أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون من ذلك، فأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي. وقيل: إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد، حتى يعبد الله ألف شهر، فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد[٣].

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل هذه الليلة المباركة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٤].

وروي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «**قولي: اللهم، إنك عفو تحب العفو فاعف عني**»[٥].

---

(١) ديوان عناقيد الغضب. د. عبد الرحمن صالح العشماوي ص٨ .

(٢) سورة القدر آية (٢-٣).

(٣) الكشاف ج٤ ص٧٧١، ٧٧٢.

(٤) صحيح البخاري. ٤/٢٢١

(٥) رواه الترمذي (٣٥٠٨).

واقتباس الناظم ليلة القدر من القرآن الكريم، والحديث الشريف لا شك أنه اقتباس يتماشى مع أهمية هذه الليلة العظيمة الأجر والثواب، وهو اقتباس محمود لا غبار عليه، فهو يذكر الأمة بليلة نزل فيها القرآن، وليلة تتنزل فيها الملائكة، وليلة يغفر الله فيها ذنوب عباده المؤمنين الذين وحدوه ولم يشركوا به شيئاً، فهي ليلة تخص المسلمين والمؤمنين دون سواهم.

وقول الناظم: (والإسراء) فيه اقتباس من قصة الإسراء التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[1].

وروي عن النبي ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج أنه قال: «بينما أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق». وقيل: أسري به ﷺ من دار أم هانئ بنت أبي طالب، وروي أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء، فأسري به، ورجع من ليلته وقص القصة على أم هانئ، وقال: مُثِّل لي النبيون فصليت بهم، وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أم هانئ بثوبه، فقال: ما لكِ ؟ قالت: أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم، قال: وإن كذبوني، فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي: هلم، فحدثهم سيدنا محمد ﷺ فمن بين مصفق، وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد بعض أناس ممن كان قد آمن به، وسعى البعض إلى أبي بكر رضي الله عنه يقولون له: إن صاحبك يقول كذا وكذا، فقال: رضي الله عنه إن كان قد قال

(١) سورة الإسراء آية (١)

ذلك فقد صدق، فقالوا: أتصدقه على ذلك ؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك، فسمي (الصديق).

وطلب منه البعض أن يصف لهم المسجد الأقصى، ولم يكن ﷺ قد رآه من قبل، فجلي له بيت المقدس، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعت فقد أصبت، فأخبرنا عن عيرنا، فأخبرهم بعدد جمالهم وأحوالها، وقال: تقدم عليكم في يوم كذا، مع طلوع الشمس، يقدمها جمل أورق، فخرجوا ينشدون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد أشرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد، وبالرغم من ذلك لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين.

أما العروج فقد عرج به ﷺ إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس، وأخبر قريشاً أيضاً بما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المعمور، وسدرة المنتهى... إلخ من أسرار هذه الرحلة المباركة.

وقد اختلف في وقت الإسراء، فقيل: كان قبل الهجرة بسنة، وعن أنس والحسن رضي الله عنهما أنه كان قبل البعثة، واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام.

وعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن عرج بروحه»، وعن معاوية: إنما عرج بروحه، وعن الحسن: كان في المنام رؤيا رآها، وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك[1].

وقيل: أُسري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكباً على البراق، وصحبه جبريل عليه السلام، فنزل هناك

١ - الكشاف ج٢ ص٦٢٢، ٦٢٣.

وصلى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد، ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل، ففتح لهما، فرأى هناك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرحب به ورد عليه السلام وأقر بنبوته، وهكذا كان في كل سماء يرى نبياً من الأنبياء، فيسلم عليه ويقر بنبوته، إلى أن وصل إلى سدرة المنتهى، فعرج به إلى الملك الجبار - جل جلاله - فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى عز وجل إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة، فسأل ﷺ ربه سبحانه وتعالى التخفيف حتى جعلها خمساً[1].

وقد تغنى الكثير من الشعراء برحلة الإسراء باعتبارها الرحلة التي فرض فيها أهم عمود من أعمدة الدين، وأهم ركن في الإسلام يهمُّ المسلمين وهو الصلاة؛ ولذا ذكر هذه الرحلة ووصفها وتبارى في التعبير عنها بمختلف الصور البلاغية الشعراء أصحاب النزعة الدينية وغير الدينية على حد سواء، ونذكر في هذا المجال قول أمير الشعراء في همزيته النبوية:

يا أيها المسري به شرفاً إلى
ما لا تنال الشمس والجوزاء
يتساءلون وأنت أطهر هيكل
بالروح أم بالهيكل الإسراء
بهما سموت مطهرين كلاهما
نور وريحانية وبهاء

(١) مختصر سيرة ابن هشام للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص١٩٢.

فـــــضل عـليـك لذي الجـــــلال ومنـــة

والـلـه يـفـــــعـل مـــــا يـرى ويـشـــاء

تغش الـغـــيـــوب من الـعـــوالم كـلمـــا

طـويـت ســـــمـــاء قـلدتـك ســـــمـــاء

إلى أن يقول:

الـله هـيـــــأ مـن حـظـيـــــرة قـــــدســـه

نـــزلاً لـــذاتـــك لـــم يـجـــزه عـــــلاء

الـعـــــرش تحـــــتـك سـدة وقـــــوائـمـاً

ومـــنـــاكـــــب الـــــروح الأمـــين وطـــاء

والـرسـل دون الـعـــــــرش لـم يـؤذن لـهـم

حـــــاشـا لـغـــيـرك مـــــوعـد ولقـاء[1]

وقد وصف أحمد شوقي هذه الرحلة أيضاً في ميميته نهج البردة، مع بعض الاختلاف جزئياً لما جاء في الهمزية، وإن كان الوصف في كليهما يصب في المعنى نفسه حيث يقول:

أســـرى بـك الـلـه لـيـلاً إذ مـــــــلائـكـــه

والـرسل في المســـجـــد الأقـــصى على قـــدم

(١) الشوقيات ج١ الهمزة النبوية ص٣٩.

لما خطرت بـه التـفـوا بسـيـدهم

كـالشـهب بالبـدر أو كـالجند بالعلـم

صـلـى وراءك مـنـهـم كـل ذي خـطـر

ومـن يفـز بحـبـيـب الله يأتـمـم

جـبت السـمـوات أو مـا فـوقـهن بهـم

عـلـى مـنـورة دريـة الـلـجـم

ركـوبـة لك من عـز ومـن شـرف

لا في الجـيـاد ولا في الأينـق الرسـم

إلى أن يقول:

حـتى بلغـت سـمـاءً لا يطـار لـهـا

علـى جناح ولا يسـعى علـى قـدم

وقـيـل: كـل نـبـي عنـد رتبـتـه

ويا مـحـمـد هذا العـرش فـاسـتلـم [1]

وبعد أن يتحدث الناظم عن المنبر، وغار حراء، وليلة القدر، وليلة الإسراء والمعراج... ينتقل إلى الحديث عن أمور أخرى مثل الحوض والكوثر فيقول:

---

(١) الشوقيات ج ١. ميمية نهج البردة ص ١٩٨.

٣٦- وَالْحَوْضُ[١] وَالْكَوْثَرُ[٢] الرَّقْرَاقُ[٣] جِئْتَ بِهِ

أَنْتَ الْمُزَّمِلُ[٤] فِي ثَوْبِ الْهُدَى فَقُمِ[٥]

وقول الناظم: (والحوض) فيه إشارة إلى حوض رسول الله ﷺ الذي وعده ربه عز وجل به، وأن الذي يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

وقد ورد في صفة حوضه ﷺ أنه قال: «... إن حوضي ما بين عدن إلى أيلة، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، أكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً».[٦]

ولا شك أن حوضاً بهذه الصفات يقدمه رب العزة هدية ومنّة وعطاءً لسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، يعد إنعاماً منه عز وجل لنبيه ﷺ، من جهة، ولأمته المسلمة من جهة أخرى.

وقد تحدث كثير من الشعراء عن الحوض، ومنهم أحمد شوقي فقال في همزيته النبوية عن الحوض:

---

(١) الحوض: مكان تجمع الماء. وحاض الماء وغيره حوضاً وحوضه: أي حاطه وجمعه، واستحوض الماء: اجتمع. وحوض رسول الله ﷺ الذي يسقي منه أمته يوم القيامة، وحكى أبو زيد سقاك الله بحوض الرسول ومن حوضه.

(٢) الكوثر: النهر. وقيل: هو نهر في الجنة يتشعب منه جميع أنهارها، وهو للنبي ﷺ خاصة.

(٣) الرقراق: المتلألئ. وكل شيء له بصيص وتلألؤ فهو رقراق.

(٤) المزمل: الملفوف بالثياب، والتزمل: التلفف بالثوب، وقد تزمل بالثوب وبثيابه أي تدثر. وكل شيء لفف فقد زمل. وفي حديث قتلى أحد: زملوهم بثيابهم. أي لفوهم فيها. وفي حديث السقيفة: فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم أي مغطى مدثر، يعني سعد بن عبادة.

(٥) فقم: القيام عكس الجلوس. والمقصود به قيام الليل أو بعضه بأداء العبادات المختلفة من صلاة وذكر لله وتسبيح وتكبير وتحميد وتهليل.

(٦) أخرجه ابن ماجه وأحمد والطبراني.

عـــرش القـــيـــامـــة أنت تحـت لـوائـه

والحـــوض أنت حـــيـــاله الســـقـاء

تـروي وتـســـــقـي الـصـالحين ثـوابـهـم

والـصـــالحـــات زخـــائـــر وجـزاء[١]

وقال أيضاً في ميميته نهج البردة عن الحوض:

وصـــاحب الحـــوض يـوم الرسل ســـائلة

مـــتى الورود؟ وجـــبـــريل الأمين ظـمي[٢]

وقال ابن نباتة عن الحوض الشريف أيضاً:

فـــفي الدنيـــا لـنا بـجـــداه ســاق

وفـي الأخـــرى لـنـا الحـــوض الـرواء[٣]

أما ناصر الزهراني فيقول:

تجـــود بـالـدمـع عـــيـني حـين أذكـره

أمـــا الفـــؤاد فلحـــوض العظيم ظم[٤]

---

(١) الشوقيات ج١ ص ٤١ .

(٢) المرجع السابق ص١٩٥ .

(٣) ديوان ابن نباتة. حرف الهمزة ص٢ .

(٤) السراج المنير ص ١٠٩ .

وقول الناظم: (والكوثر) فيه اقتباس من قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[١] والكوثر كما ثبت في الصحيح نهر في الجنة أحلى من العسل، وأشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، حافتاه الزبرجد، وأوانيه من فضة، عدد نجوم السماء.

وروي: لا يظمأ من شرب منه أبداً، أول واردِيه: فقراء المهاجرين: الدنسو الثياب، والشعث الرؤوس، الذين لا يزوجون المنعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره، لو أقسم على الله لأبره. وعن ابن عباس أنه فسر الكوثر: بالخير الكثير، فقال له سعيد بن جبير: إن ناساً يقولون: هو نهر في الجنة ! فقال: هو من الخير الكثير[٢].

وعن أنس قال: «بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أُنْزلت علي آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ السورة، ثم قال ﷺ أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: إنه نهر في الجنة - وعدنيه ربي - عز وجل - فيه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد - أي ينتزع ويقتطع - منهم فأقول: إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»[٣].

وقال أبو حيان: ذكر في الكوثر ستة وعشرون قولاً، والصحيح هو ما فسره به رسول الله ﷺ فقال: «**هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل**»[٤].

---

(١) سورة الكوثر آية (١).

(٢) الكشاف ج٤ ص٨٠١، ٨٠٢.

(٣) تفسير جزء عم للشيخ / محمد علي الصابوني ص ١٤٦، ١٤٧.

(٤) المرجع السابق.

وروي عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله وقد قيل له: يا رسول الله، ما الكوثر الذي أعطاك الله؟ قال: نهر كما بين صنعاء إلى أيلة، آنيته كعدد نجوم السماء، ترده طير لها أعناق كأعناق الإبل، قال: يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنها يا رسول الله لناعمة ؟ قال: آكلها أنعم منها.

والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كبير في القدر كوثراً[١].

وأما نعت الناظم الكوثر بأنه رقراق في قوله: (والكوثر الرقراق) ففيه أيضاً اقتباس من الأحاديث السابق ذكرها التي تصفه بأنه أبيض، فنعته الناظم بأنه أبيض يتلألأ كما الفضة، مستعيراً تشبيهه من الأحاديث التي وصفت الكوثر بأنه أبيض كالثلج، أو أشد بياضاً من اللبن...

وأما قوله: (أنت المزمل.. فقم) ففيه إشارة إلى قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾[٢].

وبنظرة إلى مفردات الناظم التي استخدمها مثل: (منبر الدنيا - غار حراء - ليلة القدر - ليلة الإسراء - الحوض - الكوثر - المزمل...) نجد التأثر الديني الغالب على منهجية الوصف والتعبير والتصوير عند الناظم، وهي في دلالتها تدل على شدة النزعة الدينية عنده، التي تستمر معه في ثنايا القصيدة فيقول في مولده ﷺ وفي معجزاته، وفي الآيات البينات الواضحات في الدلالة عند مولده ﷺ واستقبال الكون والإنس والجن لمولد نبي هذه الأمة:

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ص ١٧٣، ١٧٤

(٢) سورة المزمل الآيات (١: ٤)

٣٧-الْكَوْنُ يَسْأَلُ وَالأَفْلاَكُ[١] ذَاهِلَةٌ[٢]

والجِنُّ[٣] وَالإِنْسُ[٤] بَيْنَ اللاَّءِ والنَّعَمِ

٣٨-والدَّهْرُ[٥] مُحْتَلِقٌ[٦] والجَوُّ مُبْتَهِجٌ[٧]

والْبَدْرُ[٨] يَنْشَقُّ[٩] والأَيّامُ فِي حُلَمِ

٣٩-سِرْبُ[١٠] الشَّيَاطِينِ[١١] لَمَّ جِئْتَنَا احْتَرَقَتْ[١٢]

وَنَارُ فَارِسَ تَخْبُو[١٣] مِنْكَ فِي نَدَمِ[١٤]

---

(١) الأفلاك: واحدتها فلك، وهو المدار الذي يسبح فيه الجرم السماوي.

(٢) ذاهلة: أي متحيرة منشغلة تسهو وتنسى. والذهل ترك الشيء عن عمد أو يشغلك عنه شاغل. وفي التنزيل " ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾.

(٣) الجن: ولد الجان. وقال ابن سيده: الجن نوع من العالم سموا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار، ولأنهم استجنوا من الناس فلا يرون. والجمع جنان. وجن: اختفى واستتر وجن عليه الليل أي ستره، وبه سموا الجن لاستتارهم عن الأبصار.

(٤) الإنس: جماعة الناس. والجمع: أناس .

(٥) الدهر: مدة العالم من بدء وجوده إلى انقضائه، أو الزمان الطويل.

(٦) محتلق: محلق مرتفع يطير في الهواء من السرور والفرح، والتحليق: الارتفاع في الهواء، وقال شمر: لا أدري التحليق إلا الارتفاع في الهواء.

(٧) مبتهج: فرح مسرور. والابتهاج: السرور.

(٨) البدر: القمر إذا امتلأ، لأنه يبادر بطلوعه غروب الشمس لأنهما يتراقبان في الأفق صبحاً. وقال الجوهري: سمي بدراً لمبادرته الشمس بالطلوع كأنه يعجلها بالمغيب، وسمي بدراً لتمامه، وسميت ليلة البدر لتمام قمرها .

(٩) ينشق: ينفلق ويتفرق.

(١٠) سرب: السرب الفريق والجماعة.

(١١) الشياطين: واحدها شيطان. وهو كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب.

(١٢) احترقت: هلكت. أو وقعت في لهب النار فهلكت، وحرقت النار الشيء: أثرت فيه. المعجم الوجيز مادة (ح. ر. ق) ص ١٤٦.

(١٣) تخبو: تسكن وتطفأ ويخمد لهيبها. وفي التنزيل: ﴿ كلما خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ .

(١٤) ندم: أسف. وندم على الشيء، وندم على ما فعل: أسف.

٤٠-وَصُفِّدَ[١] الظُّلْمُ[٢] وَالأَوْثَانُ[٣] قَدْ سَقَطت[٤]

وَمَاءُ سَاوَةَ لَمَّا جِئْتَ كَالحِمَمِ[٥]

وقول الناظم: (الكون يسأل) فيه تشبيه للكون بإنسان يتساءل وقصد بالكون الوجود المطلق العام لمخلوقات الله أجمعها، والتعبير فيه تشخيص.

وقوله: (الأفلاك ذاهلة) فيه تشبيه استعاري للأفلاك حيث صورها بشخص يذهل وينسى ويتحير، وهذا فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ . . .** ﴾[٦].

وأما قوله: (الجن والإنس بين اللاء والنعم..) التعبير يوحي بالتحير والتخبط والضياع الذي شعر به الثقلان عند مولده ﷺ، والجن أجسام هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، ولها عقول وأفهام وقدرة على القيام بالأعمال الشاقة، وهم بخلاف الإنس، والواحد جني، وروى الطبراني بإسناد حسن عن أبي ثعلبة الخشني أن النبي ﷺ، قال: «الجن ثلاثة أصناف: فصنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصنف حيات، وصنف يحلون ويظعنون»[٧] وقال أبو الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ، قال: «خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنف كالريح في الهواء، وصنف كبني آدم عليهم الحساب والعقاب..»[٨] والجن المؤمن يدخلون الجنة ويثابون كما يثاب

---

(١) صفد: صفده: شد وثاقه وقيده، والصفاد ما يوثق به الأسير وغيره من أقياد وأغلال.

(٢) الظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

(٣) الأوثان: الأصنام. وقيل: الوثن الصنم الصغير. وفي الحديث: شارب الخمر كعابد وثن.

(٤) سقطت: وقعت. والسقطة: الوقعة الشديدة. لسان العرب مادة (س. ق. ط) ج٦ ص ٢٩٣، ٢٩٤.

(٥) الحمم: الرماد المحترق. المعجم الوجيز مادة (ح. م. م) ص ١٧٣.

(٦) الحج آية (٢).

(٧) رواه الإمام أحمد ٤/٢٠ .

(٨) رواه الإمام أحمد ٤/٢٠ .

الإنس، وخالف أبو حنيفة والليث ذلك وقالا: ثواب المؤمنين منهم أن يجاروا من النار، وخالفهما الأكثرون فيما ذهبا إليه حتى أبو يوسف ومحمد، وقيل: الجن المؤمنون يدخلون الجنة ولكن لا يأكلون فيها ولا يشربون، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه قال: الخلق كلهم أربعة أصناف: صنف في الجنة كلهم وهم الملائكة، صنف في النار كلهم وهم الشياطين، وصنف في الجنة والنار وهم الجن، والإنس لهم الثواب وعليهم العقاب[١].

وقد ورد ذكر الجن في القرآن الكريم في أكثر من موضع، وأن منهم المؤمنين ومنهم الكافرين، حيث قال - عز وجل -: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾[٢] وقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾[٣]... ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[٤] وقال - عز وجل - أيضاً: " ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾. "[٥]

قال ابن إسحاق: وكانت الأحبار من اليهود والرهبان والنصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله قبل مبعثه بما يقارب زمانه، وأما

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميري.
(٢) سورة الجن آية (١: ٢).
(٣) سورة الجن الآيات ٨: ١١.
(٤) سورة الجن الآية (١٤، ١٥).
(٥) الأحقاف آية (٢٩).

الأحبار من اليهود والرهبان والنصارى فما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه، وأما الكهان من العرب فتأتيهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع إذ كانت لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، فلما تقارب زمان رسول الله ﷺ وحضر مبعثه حجبت الشياطين عن السمع وحيل بينهم وبين القاعدة التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها؛ فرموا بالنجوم فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله.

وروى أبو جعفر العقيلي عن رجل من بني لهب يقال له الهيب قال: حضرت مع رسول الله ﷺ فذكرت عنده الكهانة فقلت: بأبي وأمي، نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم؛ ولذلك اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك، وكان شيخاً كبيراً، ومن أعلم كهاننا فقلنا: يا خطر، هل عندك علم من هذه النجوم التي يرمى بها، فإنا قد فزعنا لها وخشينا سوء عاقبتها، فقال: ائتوني بسحر، أخبركم الخبر بخير أم ضرر، قال: فانصرفنا عنه فلما كان غد، أتيناه في وجه السحر، فإذا هو قائم شاخص في السماء بعينيه فناديناه يا خطر، فأومأ إلينا أن أمسكوا، فانقض نجم عظيم من السماء، وصرخ الكاهن رافعاً صوته: أصابه إصابه. خامره عقابه، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، زايله جوابه. يا ويله ما حاله، تقطعت حباله، وغيرت أحواله ثم قال:

يا معشر بني قحطان

أخبركم بالحق والبيان

أقسمت بالكعبة والأركان

والبلد المؤتمن السدان

قد منع السمع عتاة الجان

بثاقب بكف ذي سلطان

من أجل مبعوث عظيم الشان

يبعث بالتنزيل والقرآن

بالهدي وفاصل الفرقان

تبطل به عبادة الأوثان

فقلنا: يا خطر، ومن هو؟ فقال: والحياة والعيش، إنه لمن قريش، ما في حلمه طيش، ولا في خلقه هيش، يكون في جيش أي جيش، ومن آل قحطان وآل أيش، فقلنا له: بين من أي قريش هو؟ فقال: والبيت ذي الدعائم، والركن والأجائم، إنه لمن نجل هاشم، ومن معشر أكارم، يبعث بالملاحم، وقتل كل ظالم. ثم قال: هذا هو البيان، أخبرني به رئيس الجان. ثم قال: الله أكبر جاء الحق وظهر، وانقطع عن الجن الخبر. ثم سكت وأغمي عليه[1]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فلينطلق معنا، فانطلقت معه، حتى إذا كنا بأعلى مكة خط بي خطاً، ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن، فغشيه أسودة كثيرة فحالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته ثم انطلقوا يتقطعون كما يتقطع السحاب ذاهبين حتى بقي منهم رهط، ثم أتى النبي ﷺ فقال: ما فعل الرهط؟ قلت: هم أولئك يا رسول الله، قال: فأخذ عظماً وروثاً فأعطاهم إياه، ونهى أن يستطيب أحد بعظم أو روث[2].

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ / محمد بن عبد الوهاب ص ٨٨ ـ ٩٠.

(٢) رواه البخاري في الوضوء ٢١-٢٠، ورواه مسلم في الطهارة (٥٨)، ورواه أبو داود في الطهارة (٤٥).

ومن لطائف أخبار الجن مع الإنس ما رواه الشافعي والبيهقي. أن رجلاً من الأنصار - رضي الله عنهم - خرج يصلي العشاء فسبته الجن، وفقِد أعواماً، وتزوجت زوجته، ثم أتى المدينة فسأله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن ذلك فقال له: اختطفتني الجن فلبثت فيهم زماناً طويلاً فغزاهم جن مؤمنون وقاتلوهم فأظفرهم الله عليهم، وسبوا منهم سبايا وسبوني معهم، فقالوا: نراك رجلاً مؤمناً ولا يحل لنا سباؤك فخيروني بين المقام عندهم والقفول إلى أهلي، فاخترت أهلي، فأتوا بي إلى المدينة، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما كان طعامهم ؟ قال: الفول، وكل ما لم يذكر اسم الله عليه، قال: فما كان شرابهم؟ قال: الجدف، وهو الرغوة؛ لأنها تجدف عن الماء، وقيل: نبات يُقْطع ويؤكل، وقيل: كل إناء كشف عنه غطاؤه[1].

فإذا انتقلنا إلى قول الناظم: (بين اللاء والنعم) وجدنا بينهما تضاداً يبرز المعنى ويزيده وضوحاً، ويبين مدى الحيرة والدهشة التي وقع فيها الإنس والجن ما بين مصدق ومكذب لمولده ﷺ .

وأما قوله: «والجو مبتهج» ففيه تشبيه استعاري أيضاً حيث شبه الجو بإنسان سعيد مسرور فرح مبتهج بمولده ﷺ.

وقول الناظم: (والبدر ينْشق) ففيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾[2] وفيه أيضاً اقتباس من القرآن الكريم، وفيه كذلك دلالة على إحدى معجزات الرسول ﷺ، ذلك أن انشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ، ومعجزاته الواضحات، حيث يروى عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن الكفار سألوا

(١) حياة الحيوان الكبرى ج١ ص ٢٣.

(٢) سورة القمر آية (١).

رسول الله ﷺ، آية فانشق القمر مرتين[١]. ويروى كذلك عن ابن عباس وابن مسعود - رضي الله عنهما - قال ابن عباس: انفلق فلقتين، فلقة ذهبت وفلقة بقيت، وقال ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتي القمر[٢].

وقول الناظم: (والأيام في حلم) فيه تشبيه استعاري وتجسيد وتشخيص للأيام بأنها إنسان يعيش في حلم جميل، والبيت في مجمله يمتاز بحسن التقسيم الذي يعطي له رونقاً موسيقياً جميلاً.

وأما قول الناظم: (سرب الشياطين لما جئتنا احترقت) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا...﴾ حيث كانت الشياطين تسترق السمع قبل مولده ﷺ، أما بعد مولده فإنها إذا اقتربت من مقاعد السمع ترجم بالنجوم فتحترق، وهذه من كرامات النبي ﷺ.

وأما قوله: (ونار فارس تخبو منك في ندم) ففيه إشارة إلى إحدى بشائر مولده ﷺ، فلما كانت ليلة مولده ﷺ ارتج إيوان كسرى وسقط منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس التي لم تخمد منذ ألف سنة[٣].

ويحكى في الأدب الفارسي قصة اكتشاف النار، حيث كان أحد الأبطال في قتال مع التنين مستخدماً الحجارة سلاحاً فلم تصب الحيوان الفظيع وإنما اصطدمت بصخرة فتولد عنها ضوء باهر، وبهذا شاهد الإنسان النار لأول مرة. ويحتوي تراث أغلب الشعوب القديمة حكايات عن أحداث خارقة للعادة، أو أحداث غير مقصودة قادت لمعرفة الإنسان بالنار. وكانت الشعوب القديمة

---

(١) متفق عليه.

(٢) اخرجه أبو نعيم في الدلائل.

(٣) في تاريخ السيرة النبوية. د. أحمد عبد الله عودات ص٩٩.

تعد النار من النعم التي أنعم بها الآلهة على الإنسان، وقد كانت تعد النار من المقدسات؛ لأنها ضرورة حتمية لرفاهية الإنسان واستمرار حياته، وقد عرفت عبادة النار، وعبادة الشمس منذ العصور الأولى، ونظراً لصعوبة تولد النار أصبح من المألوف الاحتفاظ بمصدر النار مشاعاً ودائم الاستعمال، وقد وجدت مصادر النار هذه في كل قرية عند قدماء المصريين والفرس والإغريق والرومان، وكثيراً ما كانت هي المركز المدني في المجتمع، ويعد معبد فستا في روما مثالاً بارزاً لأهمية النار عند الرومان، وقد كانت فستا في الأصل آلهة المدفئة عندهم، وكان محرابها في كل بيت، ولكن عندما أصبح الدين تحت رعاية الدولة أقيم معبداً احتفظ فيه بالنار المقدسة مشتعلة باستمرار(١). وقد انطفأت هذه النار يوم مولد النبي ﷺ.

وتناول الشعراء نار فارس في قصائدهم عند تعرضهم لمدح النبي ﷺ باعتبارها إحدى بشائر مولده - عليه الصلاة والسلام - فقال عنها أحمد شوقي في همزيته:

والنار خاوية الجوانب حوله

خمدت ذوائبها وغاض الماء(٢)

وقال فيها ابن نباته أيضاً:

وفي نار المجوس لنا دليل

لأنفسهم بها ولها انطفاء(٣)

---

(١) الموسوعة العربية العالمية ج٢٥ ص٢٨.

(٢) الشوقيات ج١ ص٣٥ .

(٣) ديوان ابن نباته حرف الهمزة ص٢

وقول الناظم: (وصُفِّدَ الظلم) صور الظلم بإنسان مقيد بالأغلال لا يستطيع منها فكاكاً ولا إفلاتاً، حيث قيدت مبادئ الإسلام ونظمه حركة الإنسان في الحياة، ومنعته من الاعتداء على الآخرين، ومنع الظلم عنهم، وهذا ما لم تستطع القوانين الوضيعة أن تحده أو تمنعه بما وضعته من نظم ومبادئ[١].

وقول الناظم: (والأوثان قد سقطت) تعبير فيه مجاز مرسل علاقته المستقبلية باعتبار ما سيكون، حيث حطم النبي ﷺ الأوثان عند فتح مكة، واستخدام الفعل الماضي مع قد يفيد التوكيد والتحقيق، والتعبير بالفعل (سقطت) فيه إشارة إلى ضعف هذه الأصنام وسرعة تهاويها، وعدم صمودها أمام الدعوة الإسلامية باعتبارها عبادة باطلة لا تملك البقاء أمام عبادة التوحيد[٢].

وقول الناظم: (وماء ساوة لما جئت كالحمم) فيه إشارة إلى إحدى بشائر مولده ﷺ، حيث جفت بحيرة ساوة ليلة مولده ﷺ، وقطعت دجلة والفرات وانتشرت في البلاد[٣].

والتشبيه في قوله: (كالحمم) توحي بأنها أصبحت كالرماد المحترق كأن لم يكن فيها ماء من قبل، ثم ينتقل الناظم إلى ذكر بعض القبائل العربية وبعض أمجاد العرب فيقول:

---

(١) تناولنا شرح الظلم وأنواعه عند شرح البيت (٢٣).

(٢) تعرضنا للحديث عن عبادة الأوثان وأنواعها بالتفصيل عند شرح البيت رقم (٢٤).

(٣) في تاريخ السيرة النبوية ص٩٩٠.

أمجاد إسلامية

٤١- قَحْطَان عَدْنَان حَازُو[١] مِنْكَ عِزَّتَهم[٢]

بِكَ التَّشَرُّفُ[٣] للتَأْرِيْخِ لاَ بِهِمِ

وقول الناظم: (قحطان عدنان) فيه إشارة إلى قحطان بن عامر بن شالح ابن سام بن نوح أصل العرب القحطانية وأبو بطون حمير وكهلان والتبابعة (ملوك اليمن) واللخميين (ملوك الحيرة) والغساسنة (ملوك الشام)، في الجاهلية يعد أول رجال الجيل الثاني من أجيال العرب الثلاثة (العاربة والمتعربة والمستعربة) ويقول: إن أول من لبس التاج من ملوك اليمن وجزيرة العرب كان من سكان حضرموت، ثم انتقل - قحطان - إلى أرض صنعاء فبنى فيها وتبعه الناس، فعمرت في أيامه. وهاجم العراق وقاتل ملك الآشوريين وتوفي في حروبه، وتفرقت سلالته في المشرق والمغرب، واسمه في التوراة (يقطان)[٤].

وذكر (عدنان) إشارة إلى نسبه ﷺ فهو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن

---

(١) حازوا: ملكوا. والحوز: مكان يملكه الرجل ويدافع عنه ولا يحق لأحد امتلاكه غيره، ويسمى حوزته.

(٢) عزتهم: العز خلاف الذل، والعزة في الأصل: القوة والشدة والغلبة والرفعة والامتناع.

(٣) التشرف: الحسب بالآباء.

(٤) الأعلام، ج٥، ص١٩٠، ١٩١.

لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم - عليه السلام - وقد روي في صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(١).

وقول الناظم: (حازوا منك عزتهم) فيه إشارة إلى أن هذه القبائل التي جاء من نسلها سيدنا محمد ﷺ قد تشرفت ونالت العزة والكرامة بمجيء النبي من نسلها، وهذا ما يؤكد قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

وقول الناظم: (بك التشرف للتأريخ لا بهم) فيه تأكيد على الفكرة السابقة وهي أن المجد والشرف والعزة يكون بانتمائنا إلى النبي ﷺ وليس بانتمائه ﷺ إلى هذه القبائل التي أحرزت مجداً وتقدماً وعزةً سطره لها التاريخ. ويؤكد ذلك المعنى الذي يرمي إليه الناظم التقديم في قوله: (بك التشرف) حيث قدم الخبر على المبتدأ لأهميته، والدلالة على أحقيته بهذا الشرف، ثم ينتقل الناظم إلى نوع آخر من الأمجاد والانتصارات التي حققها الرسول ﷺ فيتحدث عن غزواته ضد الكفر والإلحاد، ومن أجل أن يعم العدل ويمحو الظلم فيقول:

---

(١) مختصر سيرة الرسول ص١٦-١٧.

(٢) سورة المنافقون آية (٨).

٤٢-عُـــقُـودُ[١] نَصْـــرِكَ فِيْ بَـدْرٍ وَفِي أُحُـدٍ

وعـدلاً[٢] فِـــيْـكَ لا فِي هَيْـــئَـةِ الأُمَـمِ

وقول الناظم: (عقود نصرك في بدر وفي أحد) فيه إشارة إلى غزوة بدر الكبرى وغزوة أحد، أما غزوة بدر فهي أكرم المشاهد، وهي يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودفع فيه الشرك وأهله مع قلة عدد المسلمين، وكثرة عدد العدو وأسلحته الكاملة، فأعز الله رسوله وأظهر وحيه، وبيض وجه النبي ﷺ وأخزى الشيطان وأعوانه، وأخبر الرسول ﷺ أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وفي الصحيح عن معاذ بن جبل قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين...، وكان خروجهم يوم السبت اثني عشر ليلة خلت من رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً، واستخلف على المدينة أبا لبابة، وخرج معه الأنصار ولم تكن قبل ذلك خرجت معه، وذلك أن الرسول بلغه خبر العير التي خرجت مع أبي سفيان من الشام فندب الرسول ﷺ أصحابه إليهم، وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو، وقال: هذه عير قريش فيها أموال، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها، فخف بعض الناس وثقل البعض، فخرج مسرعاً ﷺ في ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان. فلما بلغ أبو سفيان مسيرة ﷺ استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري؛ ليأتي قريشاً ويخبرهم أن محمداً قد اعترض عيرهم، فنهضوا مسرعين قريباً من ألف مقاتل، ومعهم مئة فرس، وسبع مئة بعير، ولم يتخلف أحد من أشرافهم.

---

١ - عقود نصرك: أي عهود نصرك.، والعقد: العهد.

٢ - عدلاً: ضد الظلم. وهو الإنصاف. وهو أخذ مالك وإعطاء ما عليك.

ثم استشار الرسول ﷺ الناس، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فدعا له رسول الله ﷺ بالخير.

فانطلق ﷺ مع أصحابه فنزل قريباً من بدر، فركب هو وأبو بكر وسارا حتى وقفا على شيخ من العرب فسأله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه وعما بلغه عنهم، فقال: بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا المكان الذي به رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشاً خرجت يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا، فلما فرغ الرجل من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ نحن من ماء، فقال الرجل محدثاً نفسه: من ماء؟! أمن ماء العراق... ؟

وقد سار أبو سفيان بساحل البحر، فلما رأى أنه أحرز العير كتب إلى قريش أن ارجعوا فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نقدم بدراً فنقيم فيه، فرجع بعضهم، وسار رسول الله ﷺ حتى نزل أدنى ماء من مياه بدر، وسبق قريشاً، ومنع قريشاً من السبق إليه مطر عظيم أرسله الله عليهم، ولم يصب أحداً من المسلمين.

وكان رسول الله ﷺ قد نزل أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة، فأتاه الحباب بن المنذر فقال يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال له ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض

بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ونغور ما وراءه، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه فنشرب ولا يشربون، فاستحسن رسول الله ﷺ رأيه ونفذه.

ثم عرض رسول الله ﷺ على أصحابه مصارع رؤوس الكفر من قريش يقول: (هذا مصرع فلان إن شاء الله، وهذا مصرع فلان إن شاء الله...). قال عمر رضي الله عنه: فو الذي بعثه بالحق نبياً ما عاد واحد منهم مضجعه الذي حدده رسول الله.

فلما نزل الناس ببدر أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله، فقال ﷺ دعوهم، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل، إلا حكيم بن حزام فإنه أسلم وحسن إسلامه.

وبات رسول الله ﷺ ليلة الجمعة - السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة - فلما أصبحوا أقبلت قريش في كتائبها، واصطف الفريقان، فلما رأوا قلة أصحاب سيدنا محمد ﷺ وكثرة عددهم، قالوا: غرَّ هؤلاء دينهم، وكان الشيطان معهم لا يفارقهم، وكانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقة بن مالك، حتى إذا التقى الجمعان فر عدو الله ونكص على عقبيه حين رأى أن الله - عز وجل - أيد رسوله والمؤمنين بالملائكة، وفي ذلك الموقف قال حسان بن ثابت:

سـرنـا وسـاروا إلى بـدر لحـتـفـهـم
لو يعلمـون يقـيـن العلم مـا سـاروا
دلاهـم بـغـرور ثـم أسـلـمـهـم
إن الخـبـيـث لمـن والاه غـرار

وقـــال إنـي لـكـــم جـــار فـــــــأوردهـــم

شـــــر المـوارد فـــيـــــه الـخـــــزي والـعـار

وقـد أيد الله - عـز وجل - رسـوله ﷺ والمؤمنين بالملائكة، وبشـر ﷺ بالنصر، ففي الصحيح: أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش ومعه الصديق رضي الله عنه أخذته سنة من النوم، ثم استيقظ فقال: «أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع» - يريد الغبار، وفي ذلك إشارة إلى قوله - عز وجل -: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وكان رسول الله ﷺ قد سأل ربه - عز وجل - النصر على هذه الفرقة الباغية الكافرة فقال: «يا رب، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً». فقال له جبريل: خذ قبضة من تراب. فأخذ ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين، وقتل من قتل، وأسر من أسر من صناديد قريش وأشرافهم[1].

وقد صور الشعراء والنُظَّام هذه الأحداث التي وقعت في بدر أبلغ تصوير، ومن أطرف ما قيل من شعر في هذه الغزوة ما قاله حمزة بن عبد المطلب - وبعضهم ينكر أن تكون هذه الأبيات لحمزة -:

عـشـيـــة راحـــوا نحـو بـدر بجـمـعـهـم

فـكـانـوا رهـونـاً لـلـركـــــيـة من بـدر

(١) مختصر سيرة الرسول ص٢٦٤: ٣٠٨.

وكنا طلبنا العير لم نبغ غيرها

فساروا إلينا فالتقينا على قدر

فلما التقينا لم تكن مثنوية

لنا غير طعن بالمثقفة السمر

وشرب ببيض يختلي الرأس وحدها

مهرة الألوان بينة الإثر

ونحن تركنا عتبة الغي ثاوياً

وشيبة في قتلى تجرجم في الجفر

وعمرو ثوى فيمن ثوى من حماتهم

فشقت جيوب النائحات على عمرو

جيوب نساء من لؤي بن غالب

كرام تفرعن الذوائب من فهر

أولئك قوم قتلوا في ضلالهم

وخلوا لواء غير محتضر النصر

لواء ضلال قاد إبليس أهله

فجاس بهم إن الخبيث إلى غدر

وقال لهم إذ عاين الأمر واضحاً

برئت إليهم ما بي اليوم من صبر

فإني أرى ما لا ترون وإنني

أخاف عقاب الله والله ذو قسر

فقدمهم للحين حتى تورطوا

وكان بما لم يخبر القوم ذا خبر

فكانوا غداة البئر ألفاً وجمعنا

ثلاث مئين كالمسدمة الزهر

وفينا جنود الله حين يمدنا

بهم في مقام ثم مستوضح الذكر

فشد بهم جبريل تحت لوائنا

لدى مأزق فيه منياهم تجري[1]

وقال كعب بن مالك أيضاً يصف بدراً، وقتلى بدر، ويفخر بالنصر الذي حازه رسول الله ﷺ وصحبه على الكفار فيقول:

عجبت لأمر الله والله قادر

على ما أراد ليس لله قاهر

(١) مختصر سيرة الرسول ص٢٩٨، ٢٩٩.

قـــضـى يـوم بـدر أن نـلاقي مـــعـــشـــراً

بغـوا وســبـــيـل البـــغـي بالـناس جـــائـر

وقـد حـــشـــدوا واســتنفـروا من يليـــهم

من النـاس حـــتى جـــمـــعـــهـم مـــتكاثـر

وســـــارت إلـينـــا لا تحـاول غـــــيـــرنـا

بـأجـمـعـهـا كـعـب جـمـيـعـاً وعـامـر

وفـــــيـنـــا رسـول الـلـه والأوس حـــــولـه

لـه مـــعـــقـل منـهـم عـــزيـز وناصـــر

وجـــــمـع بـني الـنجـار تـحت لـوائـه

يمـشـــون فـي المـاذي والـنـقـــع ثـائـــر

فلـمـا لقـــيـنـاهـم وكـل مـــجـاهـد

لأصـحـابـه مـســتـبـسـل النفس صـابـر

شـــهـــدنـا بـأن الـلـه لا رب غـــيـــره

وأن رســـــول الـلـه بـالحـــق ظـاهـــر

إلى أن يقول:

فكـب أبو جـــهـل صـــريعـاً لـوجـــهـه

وعـــتـــبـة قـد غـــادرنـه وهو عـــاثـر

وشـــيـــبـــة والتـــيـــمـي غـــادرن في الوغـى

ومـا منهـــمـــا إلا بـذي العـــرش كـــافـــر

فـــأمـــسـوا وقـود النار في مـــسـتـــقـــرهـا

وكـل كـــفـــور في جـــهـنم صـــائـــر

تلظى عليـهـم وهي قـد شب حـمـيـهـا

بزبـر الحـــديـد والحـــجـارة ســـاجـــر

وكـان رسـول الله قـد قـــال أقـــبـلـوا

فـــولـوا وقـــالـوا إنمـا أنـت ســـاحـــر

لأمـــر أراد الـلـــه أن يـهـلـكـــوا بـــه

وليـــس لأمـــر حـــمـــه الـلـه زاجـــر[1]

والشعر في بدر كثير جداً، لا ينفك ولا ينفض، ولا يتسع المجال لسرد الكثير منه، ولا سيما في أول غزوة من غزوات رسول الله ﷺ التي فرغ منها ﷺ في عقب رمضان وأوائل شوال.

وأما قول الناظم: (وفي أحد) ففيه إشارة أيضاً إلى إحدى غزوات الرسول ﷺ وهي غزوة أحد، وأحد جبل مشهور بالمدينة على بعد أقل من فرسخ منها، وسمي بذلك لتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى، وقال فيه الرسول ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه»، وكانت عنده الوقعة المشهورة في شوال، يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت منه.

١ - مختصر سيرة الرسول ص٣٠٣، ٣٠٤.

وكان سبب غزوة أحد أن قريشاً لما رجعوا من بدر، ورجع أبو سفيان بعيره، قال عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل في جماعة ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بدر: يا معشر قريش، إن محمداً قد قتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه - يقصدون عير أبي سفيان ومن كانت له تجارة فيها - لعلنا أن ندرك منه ثأرنا، فأجابوا لذلك وباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار. وفيهم نزل قوله تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾[١].

فلما اجتمعت قريش لحرب الرسول ﷺ كتب العباس كتاباً يخبر رسول الله ﷺ بخبرهم، وسار بهم أبو سفيان حتى نزل بهم بطن الوادي من قبل أحد مقابل المدينة، وكانوا قريباً من ثلاثة آلاف، وجاؤوا معهم بنسائهم حتى لا يفروا. فلما سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون، قال للمسلمين: إني قد رأيت والله خيراً: رأيت بقراً تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأولها المدينة، فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلمة التي في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا بشر مقام فامكثوا، فإن دخل القوم الأزقة قاتلناهم، ووافقه على هذا الرأي جماعة من الصحابة، وبادر جماعة ممن فاتهم الخروج يوم بدر فقالوا: يا رسول الله، كنا نتمنى هذا اليوم، اخرج إلى أعدائنا؛ حتى لا يرون أننا جبنا عنهم، فصلى ﷺ بالناس الجمعة ثم أمرهم بالجد والاجتهاد. ولبس ﷺ لأمَتَه[٢]، وتقلد سيفه، فندموا

---

(١) سورة الأنفال آية (٣٦).

(٢) اللأمة: أداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر وسيف ودرع .

جميعاً على ما صنعوا، فقالوا: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت، وذلك بعد أن قال سعد بن معاذ وأسيد بن خضير: استكرهتم رسول الله على الخروج، فقال النبي ﷺ: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه.

وعقد رسول الله ﷺ ثلاثة ألوية، لواء بيد أسيد بن خضير، ولواء بيد علي ابن أبي طالب، وقيل بيد مصعب بن عمير، ولواء بيد الحباب بن المنذر، وقيل بيد سعد بن عبادة. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وكان قد رد ﷺ جماعة من المسلمين لصغر سنهم، منهم أسامة بن زيد، وابن عمر، والبراء بن عازب.

وكان المسلمون ألف رجل، وقيل: تسع مئة، والمشركون ثلاثة آلاف، ونزل ﷺ بأحد، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم، فلما أصبح تعبأ للقتال وهو في سبع مئة فيهم خمسون فارساً، ووضع ﷺ خطة الحرب، وقال للرماة: إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم.

واشتد القتال بين الفريقين، وقاتل حمزة أسد الله قتالاً شديداً حتى قتل أرطأة بن عبد شرحبيل وغيره من صناديد قريش حتى استشهد رضي الله عنه، وكانت الغلبة أول النهار للمسلمين فهزموا أعداء الله فولوا مدبرين، فقال عبد الله بن جبير: الغنيمة الغنيمة... فترك الرماة أماكنهم، فانكشف ظهر الجيش، فكانت بداية لهزيمة منكرة تحل بجيش المسلمين، حيث سادت الفوضى واستشهد الكثير من المسلمين في هذه الغزوة بسبب مخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ وقد جرح الرسول ﷺ في هذه الغزوة، وروى الأوزاعي: بلغنا أنه لما جرح رسول الله

ﷺ يوم أحد، أخذ شيئاً فجعل ينشف دمه، وقال: لو وقع شيء منه على الأرض لنزل عليهم العذاب من السماء، ثم قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

واستشهد من المسلمين يوم أحد: سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب قتله وحشي مولى نوفل، وقيل: إن هذه الحربة التي قتل بها حمزة رضي الله عنه قتل بها مسيلمة الكذاب يوم اليمامة في عهد أبي بكر الصديق، واستشهد مصعب بن عمير كذلك قتله ابن قمئة الليثي، واستشهد من الأوس عمرو بن معاذ أخو سعد بن معاذ، والحارث بن أنيس، وعمارة بن زياد، وعباد بن سهل، والحارث ابن أوس وغيرهم كثير من المسلمين من المهاجرين والأنصار[1].

فإذا ما انتقلنا إلى قول الناظم: (عدلاً فيك لا في هيئة الأمم) وجدنا فيه إشارة إلى العدل الذي ينشده المجتمع والناس والعالم أجمع، وأن هذا العدل بأركانه ومفرداته ومعانيه لا يمكن أن نحصل عليه في أركان هيئة الأمم المتحدة، والتي يسعى إليها العالم الكافر والمسلم على حد سواء باعتبارها قبلة العدل المنشودة، وهذا شيء باطل، فكيف نحصل على العدل من مجتمع لا يحكم بالإسلام ولا ينفذ تعاليم الإسلام ويتبع في نطقه بالعدل على العولمة وقوانين العالم غير المؤمن بسيدنا محمد ﷺ أو برسالته؛ ولذا فالعدل هو فيك أنت يا محمد، فيك أنت يا خاتم الأنبياء والمرسلين فيما جئت به من قوانين تصلح للحكم بين المسلم وغير المسلم بالعدل والقسطاس، حيث توفر الأمن والأمان لكل منهما.

أما الأمم المتحدة فهي منظمة دولية تعمل على المحافظة على السلام والأمن العالميين ومن أجل الارتقاء بالإنسانية، وتنتمي إلى منظمة الدول

١ - مختصر سيرة الرسول ص٣١٦: ٣٣٢.

المستقلة في جميع أنحاء العالم، وترسل كل دولة أعضاء يمثلونها إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك، حيث يناقشون المشاكل ويحاولون حلها.

وتؤكد وثائق الأمم المتحدة أن لها هدفين رئيسين هما: السلام والكرامة الإنسانية، فإذا اندلع القتال بين قطرين أو أكثر في أي مكان يجوز أن تطلب من الأمم المتحدة التدخل لمحاولة وقفه، وبعد توقف القتال يجوز للأمم المتحدة القيام بوضع التدابير اللازمة لمنع تكراره مرة أخرى، ولكن الأمم المتحدة تحاول قبل كل شيء معالجة المشاكل والنزاعات قبل أن تتفاقم وتؤدي إلى القتال، ومن أهدافها الأساسية أيضاً تحديد أسباب الحرب لإيجاد الوسائل الكفيلة لإزالتها، وقد لقيت النجاح في بعض مهماتها، والفشل في بعضها الآخر[1].

ثم ينتقل الناظم بعد ذلك للحديث عن أمجاد الإسلام والمسلمين ودور رسول الله ﷺ في هذه الحضارة، باعتباره واضع اللبنة الأولى لها وأول مؤسس لأول دولة إسلامية بمعناها ومضمونها، والتي مثلت شعلة الانطلاق نحو حضارة إسلامية قوية ومتقدمة تنافس مثيلاتها من الحضارات المادية المتهاوية، فيقول الناظم في ذلك:

---

١ - الموسوعة العربية العالمية ج٣ ص٨٥.

٤٣- شَادُوا[١] بِعِلْمِكَ[٢] حَمْرَاءَ وَقُرْطُبَةَ
لِنَهْرِكَ[٣] الْعَذْبِ[٤] هَبَّ[٥] الْجِيلُ[٦] وَهُوَ ظَمِي

وقول الناظم: (شادوا بعلمك) فيه دلالة على الثناء والمديح الذي استحقه رسول الله ﷺ على علمه، كون هذا العلم من عند رب العالمين لقوله عز وجل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[٧]. أي أن علمه (لم يكن كعلم سائر البشر يخضع لمعيار الصواب والخطأ، وإنما كان علم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، علم لا يتغير بتغير الدهور والشهور، علم علمه له شديد القوى).

وقول الناظم: (حمراء) فيه إشارة إلى إحدى قلاع الهندسة والفن والمعمار الإسلامي، فحمراء هو قصر وقلعة في غرناطة - قصر الحمراء - بأسبانيا، بناه المسلمون العرب فاتحو الأندلس ما بين عامي ٦٤٦ - ٧٥٥ هـ، ويحتوي القصر على بعض من نماذج الفن الإسلامي الرفيعة الموجودة في أوربا، ويكمن جمال القصر في ساحاته، وصالاته الداخلية، كما تغطي الجدران والسقوف زخارف من الجص مزينة بصور أوراق النبات، ومن الأشياء الجميلة المشهورة ساحة الأسود مع نافورته الجميلة.

---

(١) شادوا: أثنوا وذكروا بالخير، وأشاد بذكره: رفع من قدره.

(٢) علمك: معرفتك، وما توصلت إليه من معارف بعد مزاولة وملابسة. والعلم نقيض الجهل.

(٣) نهرك: أي عذب علمك ومعارفك وأفضالك. والنهر: مجرى الماء العذب.

(٤) العذب: الماء الطيب المستساغ، وقيل: العذب من الطعام والشراب: كل مستساغ طيب منها. وفي التنزيل ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾.

(٥) هب: ثار ونشط. وفي الحديث «لقد رأيت أصحاب رسول الله يهبون إليها كما يهبون إلى المكتوبة» أي الركعتين قبل المغرب، ويهبون: أي ينشطون.

(٦) الجيل: الصف من الناس، وقيل: الأمة، وقيل: كل قوم يختصون بلغة.

(٧) سورة النجم الآيات (١: ٥).

وقد جاءت تسميته من القرميد الأحمر الذي بني منه الجدار الخارجي، وكان هذا القصر المعقل الأخير للمسلمين في صراعهم ضد النصارى في أوربا عام ١٤٩٢م، وقد سقط على أيدي الجيوش الأسبانية[١].

وأما قول الناظم: (وقرطبة) ففيه إشارة أيضاً إلى مدينة أندلسية أخرى، وهي قرطبة وتقع في أسبانيا، ويبلغ عدد سكانها (٧٣٧, ٢٨٤) نسمة، وتقع على بعد ١٣٨كم شمالي شرق صقلية.

واحتل الرومان قرطبة عام ٢٠٦ق. م، وقد بلغت ذروة أهميتها في القرن العاشر الميلادي، وكانت مركزاً شهيراً للفن والثقافة الأندلسية، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قبل دخول الإسلام فيها، واتخذها بنو أمية ومن بعدهم عاصمة للمسلمين في الأندلس، حيث كانت أهم المدن ومستقر دار الخلافة، وما زالت آثار المسلمين باقية فيها إلى الآن، وأشهرها (جامع قرطبة)، ومن قرطبة وصلت علوم الإسلام إلى أوروبا؛ لأنها كانت منارة الفكر خلال العصور الوسطى الأوربية، وسقطت بالطبع قرطبة من أيدي المسلمين ضمن ما سقط من بلاد الأندلس[٢].

وقول الناظم: (لنهرك العذب هب الجيل وهو ظمي) ففيه إشارة إلى ظمأ الجيل المسلم إلى هذا النهر العذب الفياض من العلم النبوي والأدب النبوي. ولذا عبر عن ذلك بكلمة (هب) التي توحي بالصحوة والنشاط، والاستيقاظ من السبات، وتعبير الناظم بالجملة الاسمية في قوله: (وهو ظمي) يوحي بالدوام والاستمرار في هذا الظمأ الذي يحتاج بالتالي معه دائماً إلى هذا النهر النبوي العذب.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية ج١٨ ص١٩١.

(٢) الموسوعة العربية العالمية ج١٨ ص١٥٣.

أما إذا أراد الشاعر بقوله: (نهرك العذب) الكوثر والحوض... فإن ذلك أيضاً يستلزم السير على نهجه ﷺ ويبدو ذلك واضحاً في ما رواه البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ حيث قال: «ليردن علي ناس من أصحابي الحوض حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1]. أي في كلتا الحالتين يجب الاقتداء بالسنة النبوية والنهل من نهره العذب في العلم والمعرفة للفوز بالجنة والنجاة من النار.

ثم يستمر الناظم في سرد مفردات الحضارة الإسلامية والتي تشهد عليها ليس حمراء وقرطبة فقط، وإنما أيضاً دمشق وبغداد، وما حققه حكام المسلمين من إرساء لدعائم مثل هذه الحضارة كالرشيد والمأمون والمعتصم فيقول:

١ - الأحاديث القدسية ج٢ ص٤٤٠.

٤٤- وَمِنْ عِمَامَتِكَ[١] الْبَيْضَاءِ قَدْ لَبِسَتْ

دِمَشْقُ تَاجَ[٢] سَنَاهَا[٣] غَيْرَ مُنْثَلِمِ[٤]

٤٥- رِدَاءُ[٥] بَغْدَادَ مِنْ بُرْدَيْكَ[٦] تَنْسِجُهُ[٧]

أَيْدِي رَشِيدٍ وَمَأْمُونٍ وَمُعْتَصِمِ

وقول الناظم: (ومن عمامتك البيضاء قد لبست) يوحي بالاستمرارية والتواصل بين الأصل والفرع، وأن معين الحضارة واحد أصله، وصاف نبعه، وأن هذه العمامة البيضاء أساس لكل مفردات الحضارة الإسلامية، والتي اقتطعت (دمشق) منها جزءاً لتلبسه ليكون لها تاج رفعة وعلو منزلة وقدر تحظى به دون أن يلحقه أي ثلم. ووصف العمامة بالبيضاء في قوله: (عمامتك البيضاء) يوحي بالصفاء والنقاء والوضوح، وأن هذه الحضارة حضارة صفاء ونقاء، حضارة تهتم بالروح والجسد، حضارة تلبي كل احتياجات الإنسان في أي مكان.

---

(١) عمامتك: ما تلفه حول رأسك. فالعمامة ما يلف على الرأس كونها من لباس الرأس.

(٢) تاج: العمامة، فالعرب تسمى العمائم التاج، وفي الحديث الشريف «العمائم تيجان العرب». والتاج هو ما يصنع أو يصاغ للملوك من الذهب والجوهر.

(٣) سناها: ارتفاع قدرها ومنزلتها، وفي الحديث «بشر أمتي بالسناء» أي بارتفاع المنزلة والقدر عند الله تعالى. والسنا من المجد والشرف.

(٤) منثلم: أي منكسر، تقول: ثلم الإناء والسيف ونحوه يثلمه ثلماً وثلمه فانثلم وتثلم: أي كسر حرفه. والثلمة: الموضع الذي انثلم.

(٥) رداء: الذي يلبس، والرداء الغطاء الكبير. والرداء الوشاح. فإذا توشحت الجارية لبست رداء.

(٦) برديك: ثوبيك، والبرد: ثوب فيه خطوط، وخص بعضهم به الوشى، وهو كساء يلتحف به. وقيل إذا جعل الصوف شقة وله هدب فهي بردة وليس برد.

(٧) تنسجه: تضم بعضه إلى بعض، فالنسج ضم الشيء إلى الشيء، وتنسجه نسجاً: سحبت بعضه إلى بعض. ونسج الحائك الثوب: أي ضم اللُّحمة إلى السدي.

وأما قوله (قد لبست) فيفيد التحقيق والتأكيد، فإضافة الفعل الماضي إلى قد يزيل الشك الذي يحيط بتلك المسألة ويؤكد على تحققها وأنها لا تحتاج إلى أي دليل. كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1] أي أن مسألة فلاحهم منتهية لا تحتاج إلى نقاش، أو تشكيك في أمر هذا الفلاح المتحقق فعلاً.

وقوله: (قد لبست دمشق) ففيه تشبيه لدمشق بإنسان يرتدي تاجاً يتزين به، والتشخيص في (دمشق) يزيد المعنى وضوحاً وجمالاً. وأما دمشق فهي دمشق الشام البلدة المشهورة، وهي جنة الأرض بلا خلاف، لحسن عمارتها، ونضارة بقعتها، وكثرة فاكهتها، وكثرة مياهها، وقيل: سميت بذلك؛ لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا، وقيل: أول من بناها بيوراسف، وقيل: بناها يقظان بن عامر، ولد إبراهيم عليه السلام بها بعد بنائها بخمسين سنة، وقيل: الذي بناها جيرون بن سعد بن عاد بن إرم بن سام عليه السلام، وسماها إرم ذات العماد، وقيل: إن هوداً عليه السلام نزل بها. وقيل سميت بدمشق بن إرم ابن سام بن نوح عليه السلام، وهو أخو فلسطين وإيلياء وحمص والأردن، وبنى على كل واحد منهم موضعاً فسمي به.

وقال أهل السير: إن آدم عليه السلام كان ينزل في موضع يعرف الآن ببيت أنات وحواء في بيت لقابيل، وهابيل في مُقْرى وكان صاحب غنم، وقابيل في قنينة وكان صاحب زرع، وهذه المواضع حول دمشق.

وروي أن دمشق كانت منزل نوح عليه السلام، وبها بنى السفينة، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[2] إنها دمشق، فهي ذات قرار وذات رخاء من العيش، وسعة، ومعين: كثرة ماء.

---

١ - سورة المؤمنون آية (١).

١ - سورة المؤمنون آية (٥٠).

وقال الأصمعي: جنان الدنيا ثلاث: غوطة دمشق، ونهر بَلْخَ، ونهر الأُبُلَّة. وأفضلها دمشق. ووصفها البعض بأنها جامعة للمحاسن والغرائب، وفيها قال البحتري:

أمـا دمـشق فـقـد أبدت مـحـاسنهـا

وقـد وفى لك مطريهـا بما وعـدا

إذا أردت مـلأت العين من بلد

مستحسن ورمان يشبه البلدا[1]

وأما قول الشاعر: (تاج سناها غير منثلم) ففيه تأكيد على أن هذا القدر وهذه المنزلة وهذا العلو والارتفاع في القدر والمنزلة والذي يكون بمثابة التاج ترتديه دمشق فوق مفرق جبينها غير منثلم، أي منكسر، وليس به أدنى عيب يمكن أن ينتقص من قدره، وقوله: (غير منثلم) فيه أيضاً كناية تدل على قمة المجد والحضارة التي وصلت إليها دمشق دون أن تشوبها شائبة.

وقول الناظم: (رداء بغداد) فيه تشبيه للحضارة والمجد الذي وصلت إليه بغداد باعتبارها عاصمة للإشعاعات الحضارية المختلفة برداء ترتديه بغداد فيزينها، وبغداد أم الدنيا وسيدة البلاد، وقال ابن الأنباري: أصل بغداد اختلف فيه العرب والأعاجم، لأنها ليست من أصل كلامهم.

قال الأعاجم: تفسيره بستان رجل، فبغ: بستان، وداد: اسم رجل، وكان أول من مصرها وجعلها مدينة المنصور بالله أبو جعفر عبد الله بن العباس، وهي مدينة كان خططها أخوه قرب الكوفة، وشرع في عمارتها عام ١٤٥هـ،

٢ - معجم البلدان ج٢ ص٤٦٣: ٤٧٠.

وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده، فبلغه ذلك فانتقل عنهم يرتاد موضعاً، فاختاروا له موضعاً قريباً من بارما، وذكر له غذاؤه وطيب هوائه، فخرج إليه بنفسه حتى نظر إليه وبات فيه، فقال: هذا موضع صالح للبناء، فإن الماء يأتيه من الفرات ودجلة، ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله، ووضع أول لبنة فيه...

وقيل: أنفق المنصور على عمارة بغداد ثمانية عشر ألف ألف دينار، وقال الخطيب: إنه أنفق على مدينته وجامعها وقصر الذهب فيها والأبواب والأسواق إلى أن فرغ من بنائها أربعة آلاف وثماني مئة وثلاثين ألف درهم، وقد مدح كثير من الشعراء بغداد وطيب عيشها فقال عمارة بن عقيل:

أعـــاينـت في طـول من الأرض أو عـــرض

كـــبـــغـــداد من دار بهـــا مـــسكن الخـــفض

صـــفت العـــيش في بغـــداد واخـــضـــر عـــودها

عـــيش ســـواها غـــيـــر خـــفض ولا غض[1]

وقول الناظم: (تنسجه أيدي رشيد ومأمون ومعتصم) فيه إشارة إلى أن هذه الحضارة التي شبهها برداء ترتديه بغداد دائماً وأبداً كان من نسج المسلمين أمثال: (رشيد ومأمون ومعتصم)، الذين شبههم الناظم بنساجين ينسجون لأمتهم رداء مجدها وحضارتها وتقدمها وتفوقها على غيرها من الأمم.

---

١ - معجم البلدان ج١ ص٤٥٦: ٤٦٦.

(ورشيد) هو هارون الرشيد بن محمد (المهدي) بن المنصور العباس أبوجعفر أشهر خلفاء بني العباس، ولد بالري، ونشأ في دار الخلافة ببغداد، وولاه أبوه القسطنطينية الرومية، فصالحته الملكة الرومية إيريني، وافتدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار سنوياً، وبويع هارون الرشيد بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي عام ١٧٠هـ، وأصبحت بغداد في عهده مركزاً حضارياً كبيراً وعرف في البلاد الأوربية، وزاد كتاب (ألف ليلة وليلة) من شهرته، بالرغم من هذه القصص المختلقة الموجودة به التي شوهت سيرته.

وكان هارون الرشيد كثير الغزوات، يغزو عاماً ويحج عاماً، وكان له بلاء عظيم في جهاد الروم، وكان فصيحاً، شجاعاً، حازماً، كريماً، متواضعاً، عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، له شعر ومحاضرات مع علماء عصره، ولم يجتمع على باب خليفة كما اجتمع على بابه من الشعراء والأدباء والكتاب.

شهد عصره بعض الثورات التي قضى عليها مثل: ثورة الوليد... وعندما أعيت علته الأطباء، عهد بالخلافة إلى ابنه الأمين، ثم المأمون ثم المؤتمن، وتوفي في إحدى قرى طوس ودفن بها[1].

وأما (مأمون) فقصد به الناظم المأمون العباسي: عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور أبو العباس، سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، وأحد عظماء الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه، نفذ أمره من إفريقية إلى أقصى خراسان، وما وراء النهر والسند، وعرفه المؤرخ ابن دحية بالإمام العالم المحدث النحوي اللغوي.

---

(١) الموسوعة العلمية ج٢٦ ص٢٦ .

ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ، فتمم ما بدأ به جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة، وأتحف ملوك الروم بالهدايا سائلاً أن يصله ما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطو طاليس وأبقراط وجالينوس.. وغيرهم، واختار لها مهرة المترجمين فترجمت إلى العربية، وحث الناس على قراءتها، فقامت دولة الحكمة في أيامه، وقرب العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والشعراء والعارفين بالأنساب... وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة، وحدثت محنة خلق القرآن في السنة الأخيرة من حياته، وكان فصيحاً، مفوهاً، واسع العلم، محباً للعفو، من كلامه: لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إلي بالجرائم. وتوفي في (بذ ندون) ودفن في طرطوس. كتب كثير من المؤرخين والكتاب عنه[1].

وأما (المعتصم) فقصد الناظم به المعتصم العباس: محمد بن هارون بن الرشيد بن المهدي بن المنصور أبو إسحاق المعتصم بالله العباسي، خليفة من أعاظم خلفاء هذه الدولة، وبويع له بالخلافة عام ٢١٨هـ يوم وفاة أخيه المأمون، وبعهد منه، وكان بطرطوس، وعاد إلى بغداد بعد سبعة أسابيع في السنة نفسها، وكان قوي الساعد، فكان يكسر زند الرجل بين إصبعيه، ولا تعمل في جسمه الأسنان، وكره التعليم في صغره فنشأ ضعيف القراءة يكاد يكون أمياً، وهو فاتح عمورية من بلاد الروم الشرقية.

وهو باني مدينة سامرا سنة ٢٢٢هـ حين ضاقت بغداد بجنوده، وهو أول من أضاف اسمه إلى الله تعالى من الخلفاء فقيل: المعتصم بالله، وكان لين

(١) الأعلام ج٤ ص١٤٢ ـ تاريخ بغداد لابن الخطيب ج١ ص١٨٣.

الجانب رضي الخلق، اتسع نفوذه جداً، وكان له سبعون ألف مملوك، وكانت خلافته ثماني سنوات وثمانية أشهر، وأنجب ثمانية من البنين، وثماني بنات، وتوفي وعمره ثمان وأربعون سنة. وتوفي بسامرا، وكان أبيض أصهب، حسن الجسم مربوعاً، طويل اللحية[١].

وقد ذكر كثير من الشعراء رشيد ومأمون ومعتصم باعتبارهم دعائم الدولة العباسية، وباعتبارهم من مؤسسي الحضارة الإسلامية في هذا العصر. وفي ذلك يقول شوقي في ميميته نهج البردة:

ولا احتوت في طراز من قياصرها
على رشيد، ومأمون، ومعتصم
من الذين إذا سارت كتائبهم
تصرفوا بحدود الأرض والتخم
ويجلسون إلى علم ومعرفة
فلا يدانون في عقل ولا فهم[٢]

ثم انتقل الناظم بعد ذلك إلى فكرة أخرى يتحدث فيها عن سدرة المنتهى حيث يقول:

(١) الأعلام ج٧ ص١١٧: ١٢٨ - تاريخ الطبري ج١ ص٦ .
(٢) الشوقيات ج١ ص١٠٥: ١٠٦.

فضائل ومحامد

٤٦- وَسِدْرَةُ[١] المُنْتَهى أَوْلَتْكَ[٢] بَهْجَتَهَا[٣]

عَلَى بِسَاطٍ[٤] مِنَ الْتَّبْجِيلِ[٥] مُحْتَرَمِ

وقوله: (سدرة المنتهى) فيه إشارة إلى قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ.. ﴾[٦] وفيه إشارة أيضاً إلى رحلة الإسراء والمعراج التي ذكرها صراحة في بيت سابق حيث يقول فيه:

أهديتنا منبر الدنيا وغار حرا

وليلة القدر والإسراء للقمم

---

(١) سدرة: شجرة النبق: والسدر: اسم للجنس، والواحدة سدرة، وأجود نبق يعلم بأرض العرب نبق هجر في بقعة يسمى السلطان، وهو أشد نبق يعلم حلاوة، وأطيبه رائحة، يفوح فم آكله وثياب ملابسه كما يفوح العطر. والسدر من الشجر سدران: أحدهما بري لا ينتفع بثمره، ولا يصلح ورقه للغسول، وربما خبط ورقها الراعية، وثمره عفص، لا يصوغ في الحلق، والعرب تسميه الضال، والسدر الثاني ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب، له سلاء كسلائه، وورقه كورقه غير أن ثمر العناب أحمر حلو وثمر السدر أصفر مز يتفكه به.

(٢) أولتك: أعطتك ومنحتك.

(٣) بهجتها: حسنها وجمالها. والبهجة: الحسن، والابتهاج: السرور.

(٤) بساط: كل ما يبسط على الأرض من فرش، وينسج من الصوف ونحوه.

(٥) التبجيل: التوقير والتعظيم.

(٦) سورة النجم آية (١٣، ١٤).

والفكرة فيها تكرار للمعنى الذي ساقه في هذا البيت، وربما يقول قائل: فيها تفصيل في قوله: (سدرة المنتهى) بعد الإجمال في قوله: (والإسراء) باعتبار سدرة المنتهى إحدى مفردات رحلة الإسراء.

وقيل في سدرة المنتهى: هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش، ثمرها كقلال هجر، وورقها كآذان الفيلة، تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله في كتابه، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها.

والمنتهى: بمعنى موضع الانتهاء أو الإنهاء، كأنها في منتهى الجنة وآخرها، وقيل: لم يجاوزها أحد، وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم، ولا يعلم أحد ما وراءها، وقيل، تنتهي إليها أرواح الشهداء [١].

وقد روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال رسول الله: «رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ست مئة جناح» سألت عاصماً عن الأجنحة فأبى أن يخبرني. فأخبرني بعض أصحابه: أن الجناح ما بين المشرق والمغرب.

وروي عن ابن مسعود أيضاً قال: «لما أسري برسول الله ﷺ، انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها»[٢].

فإذا ما انتقلنا إلى قول الناظم: (على بساط من التبجيل محترم) نرى حسن الاستقبال الذي حظي به الرسول ﷺ، وكلمة بساط توحي بعظمة الاستقبال، حيث بُسطت له البسط التي تبسط للملوك والأمراء وكبار القوم،

(١) الكشاف ج٤ ص٤١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص٢٢٢-٢٢٥.

ونعت التبجيل بالاحترام في قوله: (التبجيل محترم) توحي بالحفاوة والترحيب والتوقير الذي قوبل به النبي ﷺ من الملائكة والأنبياء، ومن مظاهر هذا التبجيل والاحترام أن النبي ﷺ أمَّ الأنبياء في الصلاة، ومن مظاهر التبجيل أيضاً أن النبي ﷺ وصل إلى سدرة المنتهى التي لم يرتق إليها أحد من الأنبياء حتى جبريل لم يستطع أن يتقدم معه.

وكان النبي ﷺ يلقى في كل سماء من الترحيب ما تقر به عينه ويشرح له صدره، وتطيب به نفسه، وهو لذلك أهل، ثم رفعت له سدرة المنتهى وغدا ورقها كآذان الفيلة... ورأى الرسول ﷺ في هذا المكان جبريل عليه السلام وله ست مئة جناح ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض[١].

٤٧- دَارَسْتَ[٢] جِبْرِيْلَ آيَات الكِتَابِ فَلَمْ

يَنْسَ[٣] المعَلِّمُ أَوْ يَسْهُو[٤] وَلَمْ يَهِمِ[٥]

وقول الناظم: (دارست جبريل آيات الكتاب) تلمح فيه المداومة على المدارسة في قوله: (دارست) التي تدل على الاستمرارية، وقوله: (آيات الكتاب) فيه إشارة إلى القرآن الكريم، وفيه إشارة أيضاً إلى سمو وارتفاع العلم والمتعلم

---

١ - هذا الحبيب يا محب ص١٣٦.

٢ - دارست: تعهدت بالحفظ، فأصل الدراسة: الرياضة والتعهد للشيء. ودارست وتدارست: أي تعهدته بالقراءة والحفظ لئلا تنساه. والدرس: المقدار من العلم يدرس في وقت ما. المعجم الوجيز مادة (د. ر. س) ص٢٢٥.

٣ - ينسَ: يترك ويغفل، والنسيان فقدان مؤقت لما حفظه الذهن من صور وأفكار وكلام وغيره. المعجم الوجيز مادة (ن. س. ا) ص٦١٤-٦١٥.

٤ - يسهو: يغفل، وسها يسهو: يترك عن غير علم، أو مع علم. المعجم الوجيز مادة (س. هـ. ا) ص٣٢٦.

٥ - يهم: يتوجه على غير هدى. أي يذهب على وجهه دون هدى. لسان العرب مادة (هـ. ا. م) ج١٥ ص١٨٣.

والمتدارس. والقرآن هو كلام الله تعالى أوحاه إلى عبده، وهو معجز بحروفه وكلماته وتراكيبه ومعانيه، وإخباره عن الغيب، مع التحدي القائم إلى يوم القيامة بأن يأتي الجن أو الإنس بمثله قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(١) وتحدى العرب أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان على أن يأتوا بعشر سور مثله فما استطاعوا، قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾(٢) وتحداهم بسورة واحدة من مثله فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣)

والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي تكفل الله بحفظه قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٤)

وكانت مدارسة جبريل لآيات الكتاب مع الرسول ﷺ تحدث مرة كل عام يراجع معه القرآن كله، وفي العام الذي توفي فيه رسول الله دارسه جبريل القرآن مرتين.

وقول الناظم: (فلم ينس المعلم أو يسهو ولم يهم) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾(٥) وفي هذا إشارة إلى بشرى بشره الله - سبحانه - بها وهي آية بينة واضحة للعيان حيث يقرأ عليه جبريل - عليه السلام - ما يقرأ من الوحي وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه، وقيل: كان يعجل بالقراءة إذا لقنه جبريل،

(١) الإسراء آية (٨٨).
(٢) هود آية (١٣).
(٣) البقرة (٢٣).
(٤) الحجر آية (٩).
(٥) سورة الأعلى آية (٦-٧).

فقيل له: لا تعجل فإن جبريل مأمور بأن يقرأه عليك قراءة مكررة إلى أن تحفظه ثم لا تنساه، وفي هذا يقول رب العزة والجلال: ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ..** ﴾[1] وكان رسول الله ﷺ إذا لقن الوحي نازع جبريل القراءة، ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة منه ﷺ إلى الحفظ، وخوفاً من أن يتفلت منه أو ينساه، فأمر بأن ينصت له ملقياً إليه بقلبه وسمعه، حتى يقضى إليه وحيه، يقول المولى - عز وجل - في ذلك: ﴿ **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾[2] روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك شفتيه، قال ابن عباس: وأنا أحرك شفتي كما كان النبي ﷺ يحرك شفتيه، وقال سعيد بن جبير: وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه. فأنزل الله - تعالى -: ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ﴾[3]

وبين (ينسى، يسهو، يهم) ترادف يوضح الفكرة ويؤكد المعنى ويقويه، واستخدام أداة النفي (لم) تدل على قلب زمن الفعل من الحاضر إلى الماضي كنوع من التأكيد؛ لأن (لم) أداة نفي وجزم وقلب، أي لم ينس أو يسهو أو يهم لا في الماضي ولا في الحاضر، وكذا في المستقبل.

ثم ينتقل الناظم إلى فكرة أخرى حيث يقول:

---

(١) سورة القيامة آية (١٦: ١٩).

(٢) سورة طه آية (١١٤).

(٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٠٥-١٠٦.

٤٨- اقْـرَأْ ودَفْـــــتَـــرُكَ[١] الأَيَّامُ خَـطَّ[٢] بِـهِ

وثِيـقَـةَ[٣] العَـهْـدِ[٤] يَا مَنْ بَرَّ[٥] في الْقَـسَـمِ[٦]

وقول الناظم: (اقرأ ...) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٧].

فأول شيء نزل من القرآن الكريم هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها عباده، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البشر آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون باللسان، وتارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في الكتابة بالبيان، وفي الأثر: قيدوا العلم بالكتابة، وفيه أيضاً: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم[٨].

وقد جمع النبي ﷺ بين نوعي العلم (علم الأذهان وعلم اللسان) وتميز النبي ﷺ بصدق إخباره عن الغيب، وهذه من العلوم التي منحها الله

---

(١) دفترك: كراستك. وقال الجوهري: الدفتر واحد الدفاتر وهي الكراريس.

(٢) خط: سطر. والتخطيط التسطير، والخط: الكتابة.

(٣) وثيقة: مستند، وكل وثيقة مستند وما جرى مجراه. وقيل: الوثيقة الصك.

(٤) العهد: كل ما عوهد عليه الله - عز وجل - وفي الحديث «وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت». أي أنا مقيم على ما عاهدتك عليه من الإيمان بك.

(٥) بر: صدق. وبر في يمينه يبر إذا صدقه ولم يحنث .

(٦) القسم: الحلف، أو اليمين بالله تعالى.

(٧) سورة العلق. الآيات (١: ٥).

(٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٨٠.

- عز وجل - له في قوله: (اقرأ) باعتبارها آية على صدق نبوته حيث كان ﷺ أميّ لا يقرأ ولا يكتب.

وقوله: (ودفترك الأيام..) إشارة إلى أن التاريخ سوف يسجل سيرته العطرة، ويشيد بأعماله وفتوحاته وأخلاقه ﷺ، وقوله: (خط به وثيقة العهد...) إشارة إلى ما عهد الله به إليه لتبليغه للناس، حيث عهد إليه بنشر دعوة الإسلام للعالمين، وهو ما تميزت به الرسالة المحمدية، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

وأما قوله: (يا من بر بالقسم) ففيه إشارة لتمسكه ﷺ بنشر دعوته وتحمله الأذى في سبيل ذلك باراً بقسمه الذي أقسمه لعمه أبي طالب عندما ذهبت مشيخة قريش إلى أبي طالب تطلب منه أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم، فبعث أبو طالب إليه ﷺ، ثم قال: يا بن أخي، هؤلاء مشيخة قومك قد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك، قال: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته» فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون بالنبي سوءً فقال أبو طالب: انظروا حين تروح الإبل فإن حنت ناقة إلى غير فصيلها دفعته إليكم، ثم أنشد قائلاً:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة
وأبشر وقر بذاك منك عيونا[2]

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧.
(٢) مختصر سيرة الرسول ص١٢٢-١٢٣.

٤٩- قَـرَّبْتَ[١] لِلْعَـالَـمِ العُلْـوِيِّ أَنفُـسَنَا

مَـسَّكْتَنَـا[٢] مَـتْـنَ[٣] حَـبْلٍ غَـيْـرَ مُنْصَـرِمِ[٤]

وقول الناظم: (قربت للعالم العلوي أنفسنا..) فيه إشارة إلى أن الدين الإسلامي فيه من الغيبيات والروحانيات ما لا يوجد في غيره من الأديان، فمن أركان الإيمان أن تؤمن بالغيب وما فيه من حساب وعقاب وجنة ونار، وعذاب القبر ونعيمه والملائكة والميزان والصراط.. إلخ.

وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ..﴾[٥]

وقد قرن الله بين الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - وبين الإيمان بالغيبيات في قوله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾[٦].

وفي قول الناظم: (قربت) دلالة على قرب هذا العالم الذي يبدو بعيداً في تصور الإنسان؛ لأن الإنسان بطبيعته لا يؤمن إلا بالمحسوس أو ما يدرك بأحد الحواس الخمس، وعالم الغيبيات يزداد قربه من الإنسان بقوة الإيمان.

---

(١) قربت: أدنيت، وفي التنزيل: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ...﴾ أي دنت.

(٢) مسكتنا: أعطيتنا ومنحتنا ما نقبض عليه بقوة وشدة. ومسك الشيء: قبض عليه.

(٣) متن: ظهر. والمتن من كل شيء ما صلب طهره.

(٤) منقطع. والصرم: القطع البائن.

(٥) سورة البقرة آية (٢٨٥).

(٦) سورة النساء آية (١٣٦).

وأما قول الناظم: (مسكتنا متن حبل غير منصرم...) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا..﴾[١] وفيه استعارة تصريحية، حيث شبه القرآن الكريم بالحبل المتين الذي لا ينقطع ولا يظهر به أثر القطع. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «القرآن حبل الله المتين، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم»[٢]

وقيل: الحبل هو الإيمان والطاعة والعمل بسنة رسول الله ﷺ؛ لأن في ذلك النجاة من الهلاك والفوز بالجنة.

وقوله: (غير منصرم) توحي بقوة هذا الحبل ومتانته، وفيه النجاة لكل من تمسك به حيث سماه المولى - عز وجل - العروة الوثقى قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ...﴾[٣]

وفي قول الناظم: (مسكتنا متن حبل..) إشارة إلى أن رسول الله ﷺ هو الذي أرشدنا إلى طريق الهداية ومسكنا هذا الحبل المتين، الذي به النجاة.

ثم انتقل الناظم بعد ذلك إلى ذكر بعض معجزاته ﷺ، التي أمده الله - عز وجل - بها وهي النصر بالرعب، حيث أوقع الله الرعب في قلوب أعدائه ﷺ، وكان بينه وبينهم مسيرة شهر. وفي ذلك يقول:

---

(١) سورة آل عمران آية (١٠٣).

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن.

(٣) سورة لقمان آية (٢٢).

٥٠- نُصِرْتَ[١] بِالرُّعْبِ[٢] شَهْراً قَبْلَ مَوْقِعَةٍ[٣]

كَأَنَّ خَصْمَكَ[٤] قَبْلَ الْحَرْبِ[٥] فِي صَمَمِ[٦]

وقول الناظم: (نصرت بالرعب شهراً قبل موقعة) فيه إشارة إلى إحدى الآيات التي منحها رب العزة له ﷺ حيث فضله رب العزة عن غيره من الأنبياء بأمور منها أنه نصر بالرعب ﷺ وفي ذلك قال أبو موسى: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لمن كان قبلي، ونصرت بالرعب شهراً، وأعطيت الشفاعة، وليس من نبي إلا وقد سأل شفاعة، وإني اختبأت شفاعتي لمن مات من أمتي لم يشرك بالله شيئاً»[٧].

ومعنى (نصرت بالرعب) أن الله - عز وجل - أوقع في قلوب أعدائه الخوف والفزع منه (فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر هابوه وخافوه وفزعوا منه) وقول الناظم: نصرت بالبناء للمجهول يفيد رد النصر بالرعب إلى الله - عز وجل - وعدم ذكر الفاعل فيه إشارة إلى تعظيم وتقديس المولى

---

(١) نصرت: أعنت ونصره: أعانه وأيده، واستنصر: طلب الغوث والعون والمدد. لسان العرب مادة (ن. ص. ر) ج١٤ ص١٦٠، ١٦١.

(٢) الرعب: الخوف والفزع. لسان العرب مادة (ر. ع. ب) ج٥ ص٢٤٠.

(٣) موقعة: الحرب والقتال، وقيل المعركة، والجمع: مواقع. وقيل: الموقعة موضع الحرب والقتال. لسان العرب مادة (و. ق. ع) ج١٥ ص٣٦٩: ٣٧٣.

(٤) خصمك: الذي يخاصمك، والخصم يصلح للواحد والجمع، والذكر والأنثى، وفي التنزيل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ...﴾ قال الزجاج: عنى المؤمنين والكافرين، وكل واحد من الفريقين خصم. لسان العرب مادة (خ. ص. م) ج٤ ص١١٤.

(٥) الحرب: نقيض السلم، وتصغيرها حريب.

(٦) صمم: فقدان حاسة السمع. وقيل: انسداد الأذن وثقل السمع.

(٧) رواه أحمد.

- عز وجل - والنصر لا يأتي إلا منه سبحانه؛ ولذا لا يحتاج لذكر الفاعل، يقول المولى - عز وجل -: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١] وقال أيضاً: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

وقول الناظم: (كأن خصمك قبل الحرب في صمم) والتشبيه ربما أراد به أن أعداء الرسول ﷺ، قد أصيبوا بمرض في حاسة السمع فيخيل إليهم أنهم يسمعون أصوات حوافر خيله ﷺ، وهو يغير عليهم قبل وصوله إليهم بشهر، والتشبيه يفتقد إلى حسن الصياغة، ثم ينتقل الناظم إلى فكرة جديدة يعبر فيها عن ذهول العدو بمقدمه ﷺ فيقول:

ذَا رَأَوْا طِفْلاً[٣] فِي الجَوِّ[٤] أَذْهَلَهُمْ

ظَنُّوكَ[٥] بَيْنَ بُنُودْ[٦] الجَيْشِ[٧] وَالحَشَمِ[٨]

---

(١) سورة آل عمران آية (١٢٦).

(٢) سورة الأنفال آية (١٠).

٣ - طفلاً: الطفل السحاب الصغار، والشمس عند غروبها، وفي حديث ابن عمر «إنه كره الصلاة على الجنازة إذا طفلت الشمس للغروب» أي دنت منه. واسم تلك الساعة الطفل، سقط النار، ويقال للنار حين تقدح: طفل وطفلة. لسان العرب مادة (ط. ف. ل) ج٨ ص١٧٥-١٧٦.

٤ - الجو: الهواء، والجو ما بين السماء والأرض، وفي حديث علي كرم الله وجهه «فتق الأجواء وشق الأرجاء» جمع جو وهو ما بين السماء والأرض. وفي التنزيل ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾. لسان العرب مادة (ج. و. ا) ج٢ ص٤٢٩-٤٣٠.

٥ - ظنوك: أي علموك بغير يقين، والظن إدراك الذهن الشيء مع ترجيحه، وظن أي علم بغير يقين. لسان العرب مادة (ظ. ن. ن) ج٨ ص٢٧١.

٦ - بنود: واحدتها بند، والبند العلم، ويكون تحت كل علم عشرة آلاف رجل أو أقل أو أكثر. لسان العرب مادة (ب. ن. د) ج١ ص٥٠١-٥٠٢.

٧ - الجيش: واحد الجيوش، والجيش الجند، وقيل: جماعة الناس في الحرب، وفي التهذيب: الجيش جند يسيرون لحرب أو لغيرها. لسان العرب مادة (ج. ي. ش) ج٢ ص٤٣٥.

٨ - الحشم: خاصة الرجل الذين يغضبون له من عبيد أو أهل أو جيرة إذا أصابه أمر، وحشم الرجل عياله وقرابته، وقال الأزهري: الحشم: خدم الرجل، وسموا بذلك؛ لأنهم يغضبون له. لسان العرب مادة (ح. ش. م) ج٣ ص١٩١-١٩٢.

وقول الناظم: (إذا رأوا طفلاً في الجو أذهلهم..) أسلوب شرط يدل على مدى تمكن الرعب والفزع في قلوبهم مما يجعلهم في حالة ذهول، فعند رؤيتهم السحاب الصغير المنضم إلى بعضه في الجو جعلهم يتناسون ما هم فيه، وينشغلون به عن غيره من أمور حياتهم، ظانين أنك قادم إليهم بجيش جرار تحت ألوية وأعلام، وفي هذا يقول الناظم: (ظنوك بين بنود الجيش والحشم) أي غلب على ظنهم بغير علم يقين بأن هذه السحب الصغيرة التي في الجو إنما تكون جيشاً من الجند يسيرون إليهم لمحاربتهم، وأن هذا الجيش يشتمل على الأقارب والأهل والجيرة والخدم ممن يغضبون لغضبه ﷺ، وكأنه جمع لهم كل أهله وعشيرته، واستخدام الشاعر لكلمة (طفلاً) يعد استخداماً حسناً غريباً لم تألفه عامة القراء. أضف إلى ذلك أن سعة معنى (طفلاً) في دلالتها توحي بسعة رقعة الفكرة الكلية التي يمكن أن يتخيلها القارئ، فمن معاني كلمة (طفلاً) سقط النار، وبذلك فيمكن أن يكون قوله: (إذا رأوا طفلاً في الجو..) أي إذا رأوا سقط نار تسقط عليهم من الجو أو تنير الجو فإنها تذهلهم وتفزعهم، ويتخيلون أنه ﷺ قادم إليهم بجيوش جرارة.

ثم انتقل الناظم إلى الحديث عن بدايات الدعوة الإسلامية، وما صحبها من معاناة ومواجهات بين الحق والباطل، وبين الشرك والإيمان فيقول:

٥٢- بِكَ اسْتَفَقْنَا[١] عَلَى صُبْحٍ[٢] يُؤَرِّقُهُ[٣]

بِلالٌ بِالنَّغْمَةِ[٤] الحَرَّا[٥] عَلَى الأطمِ[٦]

وقول الناظم: (بك استفقنا) فيها تقديم شبه الجملة على الفعل والفاعل، والغرض منه التشريف والتعظيم والاهتمام بشخص النبي ﷺ ووجوب التشريف والتعظيم له أوجب تقديم ما يدل عليه، والتعبير بالفعل (استفقنا) يوحي بمدى الغفلة التي كان عليها الناس قبل الإسلام، فكأنما كانوا مغشياً عليهم أو نائمين أو نحو ذلك ثم عادوا إلى طبيعتهم.

واستخدام الفعل الماضي (استفقنا) يدل على انتهاء هذا الأمر والفراغ منه، حيث لا يجب أن نعود إلى هذه الغفلة مرة أخرى.

وقوله: (على صبح يؤرقه) فيه تشخيص للصبح بإنسان يسهر الليل ولا ينام، والاستعارة فيه تكمل الفكرة السابقة، وتمهد للمعنى الذي يليه وهو قول الناظم: (على صبح يؤرقه بلال) وبلال هو: بلال بن رباح الحبشي أبو عبد الله مؤذن الرسول ﷺ، وخازنه على بيت المال، وهو أحد السابقين إلى الإسلام،

---

١ - استفقنا: أي رجعنا إلى ما كنا قد شغلنا عنه. ومنه إفاقة المريض والمجنون والمغشي عليه والنائم، ويقال: أفاق فلان واستفاق أي عاد إلى طبيعته من غشية لحقته ونحوها.

٢ - صبح: أول النهار، والصبح الفجر، وفي الحديث «أصبحوا بالصبح فإنه أعظم للأجر» أي صلوها عند طلوع الصبح.

٣ - يؤرقه: يسهره ويمنع عنه النوم، والأرق السهر، وفي التهذيب: الأرق، ذهاب النوم بالليل، وفي المحكم ذهاب النوم لعله.

٤ - النغمة: جرس الكلمة وحسن الصوت، والنغمة الكلام الحسن، وقيل: الكلام الخفي.

٥ - الحرا: الصوت والجلبة، وقيل: صوت التهاب النار وحفيف الشجر، وخص ابن الأعرابي به مرة صوت الطير.

٦ - الأطم: الحصن المبني بالحجارة، وقيل: هو كل بيت مربع مسطح، وقيل: الأطم هي حصون لأهل المدينة، وفي الحديث «حتى توارت بآطام المدينة» يعني بأبنيتها المرتفعة كالحصون.

وفي الحديث «بلال سابق الحبشة» وعن مجاهد: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وبلال، وخباب، وصهيب، وعمار، وسمية أم عمار. فأما رسول الله ﷺ فمنعه عمه، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأخذ الآخرون فألبسوا أدرع الحديد ثم صهروا في الشمس حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ، وطعن أبو جهل سمية فقتلها، فكانت أول شهيدة في الإسلام، وأما بلال فجعلوا في عنقه حبلاً وأمروا صبيانهم فاشتدوا به جرياً بين أخشبي مكة، وهو يقول: أحد أحد، ورآه أبو بكر فاشتراه وأعتقه».

وكان بلال شديد السمرة، نحيفاً طويلاً، له شعر كثيف، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولما توفي الرسول ﷺ أذن بلال ولم يؤذن بعد ذلك، وأقام حتى خرجت البعوث إلى الشام فخرج معهم، وروى له البخاري ومسلم أربعة وأربعين حديثاً[1].

وقول الناظم: (على صبح يؤرقه بلال..) كناية عن الآذان الذي كان يشق به بلال ظلام الليل، واستخدام الشاعر الصبح مع الأرق في قوله: (صبح يؤرقه بلال) غريب؛ لأن الأرق يكون ليلاً وليس صباحاً، وفيه استغراق من الشاعر على استعمال التشبيهات الغريبة، حيث شبه الصبح بإنسان نائم يؤرقه صوت آذان بلال بصوته الرخيم على البيوت الشاهقة والأماكن المرتفعة في المدينة التي يصل إليها الآذان لقول الناظم: (يؤرقه بلال بالنغمة الحرا على الأطم..)

ثم ينتقل الناظم إلى ختام القصيدة يبث الشوق والمحبة إلى رسول الله ﷺ وتقديم الدليل عليها فيقول:

---

١ - الأعلام ج٢ ص٧٣، طبقات ابن سعد ج٣ ص١٦٩.

المقطع الأخير

٥٣- إِنْ كَـانَ أَحْـبَـبْـتُ بَعْـدَ اللهِ مِـثْلَكَ فِي
بَدْوٍ(١) وحَـضَـرٍ(٢) وَمِنْ عَـرَبٍ(٣) وَمِنْ عَـجَمِ(٤)

٥٤- فَـلا اشْـتَـفَى(٥) نَاظِرِي مِنْ مَنْظَرٍ حَـسَـنِ
وَلا تَفَـوَّهَ(٦) بِالْقَـوْلِ الْسَّـدِيـدِ(٧) فَـمِـي

وقوله: (إن كان أحببت...) أسلوب شرط يقوي الفكرة ويعمقها ويؤكدها، ويبين مدى فرط محبته لرسول الله ﷺ واستخدامه لكلمة (مثلك) مع أسلوب الشرط توحي بنفي المثلية عن رسول الله ﷺ فلا يوجد مثله أحد في صفاته أو أخلاقه أو عدله...

وقوله: (في بدو وحضر) بينهما تضاد يفيد الشمول، وكان الأفضل أن يقول: (في بدو وفي حضر) بزيادة حرف الجر في الفاء لتستقيم موسيقى البيت.

---

(١) بدو: خلاف الحضر، والبدو سكان البادية، وقال الليث: البادية اسم للأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحارى قيل: قد بدوا.

(٢) حضر: خلاف البادية. والحاضر: المقيم في المدن والقرى والريف.

(٣) عرب: جيل من الناس معلوم خلاف العجم، واختلف الناس في العرب لم سموا عرباً، فقال بعضهم: أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب: يعرب بن قحطان، وهو أبو اليمن كلهم، وهم العرب العاربة.

(٤) عجم: خلاف العرب، والأعجم من لا يفصح.

(٥) اشتفى: طلب الشفاء. وأشفيك: أي أعطيتك الدواء الذي تستشفي به. واشتفى نال الشفاء.

(٦) تفوه: تحدث بفمه. نسبة إلى الفوه: أي الفم.

(٧) السديد: أي الصواب. ويقال: قل قولاً سدداً وسداداً أي صواباً.

وأما قوله: (ومن عرب ومن عجم) ففيه تضاد يفيد الشمول والعموم، وتكرار التضاد هنا يؤكد المعنى بالضد ويحسنه.

وأما قوله: (فلا اشتفى ناظري...) جواب شرط يشتمل على دعاء ضمني يؤكد على هذه المحبة الخالصة لرسول الله (فهو يتمنى أن يصاب ناظره بالعمى لو لم يكن مخلصاً في هذه المحبة، ويتمنى ألا يرى أي منظر ممتع يسر ناظره إن كانت هذه المحبة يعلوها الشك أو الريبة، بل ويتمنى أيضاً على سبيل الدعاء بألا يقول قولاً سديداً أي يصاب بالخبل فلا يدري ماذا يقول، وذلك في قوله: (ولا تفوه بالقول السديد فمي).

وتكرار النفي في قوله: (فلا اشتفى - ولا تفوه) نلمح من خلالها صدق هذه المحبة لنبي الرحمة المهداة، وخاتمة القصيدة في مجمل معناها وأفكارها، والأمنيات التي فيها، والأدلة التي سبقت من خلالها كبرهان على الإخلاص في محبة رسول الله (ختم بها ناصر الزهراني ميميته السراج المنير) حيث يقول:

إن حل في القلب أعلى منك منزلة

في الحب حاشا إلهي بارئ النسم

فمزق الله شريانـي وأوردتـي

ولا مشت بي إلى ما أشتهي قدمي[1]

واتحاد المعنى بين الشاعرين يوحي بتوحد المسلمين في مشاعرهم وعواطفهم تجاه محبة رسول الله ﷺ.

---

١ - السراج المنير ص١١١.

الخاتمة

وفصل القول أن الناظم نازل الشعراء ومدح خير الأنبياء فأبدع، وصال وجال بين الصور والتشبيهات فأمتع، وعلى الرغم من وقوعه في بعض مواطن الزلل التي لابد لكل شاعر أن يقع فيها، إلا أن ناظمنا أجاد بعد أن امتطى صهوة الكلمات، وصاغ بدقة كل التعبيرات، فلم يكن هناك بد في نهاية المطاف من إبداء الإعجاب بتاج المدائح التي جاءت موحية ومعبرة عن عاطفة صادقة تهيم في حب رسول الله ﷺ ذلك النبي العربي الأمي الأمين الذي مهما تبارى الشعراء في محبته ومدحه فلن يؤدوه حقه، ولذا قال أحمد شوقي:

أنت الذي نظم البرية دينه

ماذا يقول وينظم الشعراء

نعم ؛ ماذا سيقول الناظمون والمادحون مهما أجادوا ومهما أشادوا، فلكل منهم اجتهاده، ولكل منهم صوره وإبداعاته، ولا نملك إلا أن نقول: إن من سأل التوفيق منهم في مدح رسول الله ﷺ نسأل الله أن يوفقه، ومنهم الدكتور عائض القرني الذي أمتعنا بتاج المدائح بكل ما احتوته من منازلة وذكر لصفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر لمحاسنه وفضائله، وتذكير بأمجاد المسلمين. ولا نملك في النهاية إلا أن ندعو له بالتوفيق والسداد. وفقه الله وسدد خطاه، وألهمه الصواب إلى ما فيه الخير.. والله أعلم وأحكم.

المصادر والمراجع

١- تاج المدائح.

٢- حدائق ذات بهجة.

٣- شرح نونية عائض القرني بقلم كاملة الكوارى.

٤- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير.

٥- معلقة امرئ القيس.

٦- معلقة طرفة بن العبد.

٧- جمرة أشعار العرب.

٨- ديوان الفرزدق.

٩- ديوان جرير.

١٠- ديوان عروة بن الورد.

١١- ديوان البحترى.

١٢- ديوان أبي تمام.

١٣- ديوان أبي نواس.

١٤- ديوان مسلم بن الوليد.

١٥- ديوان أمية بن أبي الصلت.

١٦- الأغاني.

١٧- ديوان المتنبي.

١٨- طبقات فحول الشعراء لابن المعتز.

١٩- ديوان بشار.

٢٠- معجم الأدباء للمرزباني.

٢١- لسان العرب.

٢٢- المعجم الوجيز.

٢٣- معجم تراجم الأعلام. للزركلي.

٢٤- المعلقات السبع. للزوزني.

٢٥- معاهد التضيعي على شواهد التلخيص. للعباس.

٢٦- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي. عباس محمود العقاد.

٢٧- المسرحية الشعرية العربية للدكتور. عبد المحسن عاطف سلام.

٢٨- أحمد شوقي شاعر العصر الحديث لشوقي ضيف.

٢٩- ديوان حافظ إبراهيم.

٣٠- الشوقيات (الناشر) دار الكتاب العربي.

٣١- حافظ إبراهيم - حياته - شعره - للدكتور يحيي شامي.

٣٢- شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي.

٣٣- ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكيري.

٣٤- مجمع الأشعال.

٣٥- أشواق العرب للأفغاني.

٣٦- أعرب في شعر المتنبي - لمحمود حسن عبد ربه.

٣٧- مطالعات في الكتب والحياة للعقاد.

٣٨- إمبراطور الشعراء - الشاعر الأسطورة د. عائض القرني.

٣٩- صحيح البخاري.

٤٠- صحيح مسلم.

٤١- سن الترمذي.

٤٢- حياة محمد - لمحمد حسين هيكل.

٤٣- مختصر سيرة الرسول - للشيخ محمد بن عبد الوهاب.

٤٤- السيرة النبوية لابن هشام.

٤٥- الكشاف للزمخشري.

٤٦- القاموس المحيط.

٤٧- السراج المنير.

٤٨- المعارضات في الشعر العربي.

٤٩- معجم البلدان.

٥٠- المتنبي. محمود محمد شاكر.

٥١- الأحاديث القدسية.

٥٢- رياض الصالحين.

٥٣ الموسوعة العربية العالمية.

٥٤- معجم البلدان.

٥٥- طبقات ابن سعد.

٥٦- في تاريخ السيرة النبوية. د/ أحمد عبد الله عودات - د. عبد الرحيم عبد الهادي علي.